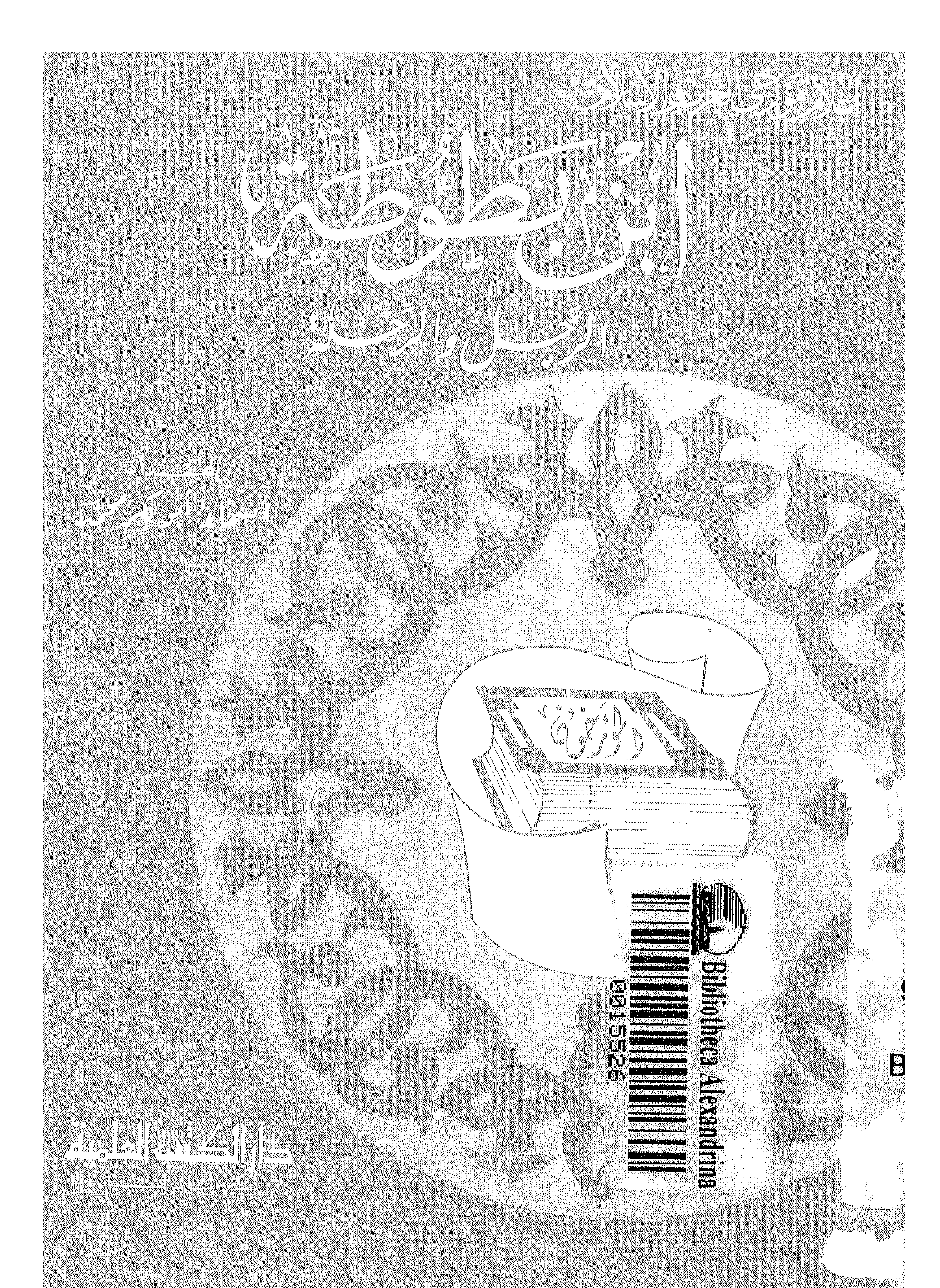

أعلام مؤرخي العرب والإسلام
ابن بطوطة
الرجل والرحلة
إعداد
أسماء أبو بكر محمد
الرحلة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0015526

أعلام مؤرخي العرب والإسلام

ابن بطوطة

الرّجل والرّحلة

إعداد

أسماء أبو بكر محمد

دار الكتب العلمية

بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣

ابن بطوطَة
ـ الرجل ، والرحلة ـ

[دراسة لابن بطوطة من خلال رحلته المسماة : تحفـة النظّار ، في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار تتنـاوله بـالتحليل كجغـرافي ، ورحّالة ، ومؤرّخ اجتماعي]

أسماء أبو بكر محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لإِيلَٰف قريش . إِيلَٰفِهِم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رَبَّ هذا البيت . الذي أطعمهم من جوعٍ وءَامَنَهُم مِن خوف ﴾

صدق الله العظيم

(سورة قريش / مكية)

[والناس كثير ولكن لا يقرّ لي إلا مرافقة الملّاح والحادي]

ابن قلاقس السكندري

(ت / ٥٦٧ هـ)

توطئـة

« لا نبـالغ إذا قلنـا إن الرحـلات من أهم فنون الأدب العـربي ، لسبب بسيط ، وهو أنها خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب ، ونقصـد تهمة قصـوره في فن القصة ، ومن غيـر شـك مَنْ يتهمونه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنـوج إفريقيـة ، وعـرائس البحـر ، وحجـاج الهنـد ، وأكَلَة لحـوم البشر ، وصنّاع الصين وسكان نهر الفولجا ، وعبَـدَة النار والإنسـان البُدائي والراقي مما يصور الحقيقة حيناً ، ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حيناً آخر » .

د . شوقي ضيف
(الرحلات ، ص ٦)

بســـــــــم الله الرحمن الرحيـــــــــم

رَحَلَ ، يرتحل ، ارتحالاً !!

الرحلة سلوك إنساني :

الإنسان بطبعه ميّال إلى الكشفِ والارتحال ، مفطور على حب الاستطلاع ومعرفة ما يحيط به من أسرار الوجود ، والتنقيب عما يعود عليه بالنفع ، لذلك حُبِّبَ له التنقل بين جنبات الأرض ، يسبر أغوارها ، ويكشف ما تنطوي عليه جبالها وصحراؤها ، وبحارها من كنوزٍ وخيرات ، وهو إلى جانب هذا الكشف قد يرى أقواماً لهم طباعهم وعاداتهم ، في تموجات حياتهم ، وهو إذْ ذاك يرصد أحوالهم ويسجل عاداتهم ، ويكتب ـ أو تنقش ذاكرته ـ صفاتهم في لقاء الغريب ، وإقبالهم عليه ، أو انصرافهم عنه .

ويصف مشاهد حياتهم وعباداتهم ، وأعرافهم وإن كانت تناقض أعرافه في بلدِه ، وحياته بين بني وطنه .

ومن غرائب طبع الإنسان حبه للاكتشاف ، فيضرب في مجاهل الأرض ويركب متون البحار ، ويمتطي أجنحة الرياح ، ويتجشم أعظم المشاق ، ويصبر على أنواع المكاره من قيظ وزمهرير ، وبردٍ وجليد ، لكي يكتشف بلاداً جديدة أو يختط طريقاً لم تطأها قدم إنسان من قبل ، وقد كان هذا رأيه من قديم الزمان ، أما حينئذ فكان

مدفوعاً بطلب الرزق وانتجاع المراعي والمتاهات وأما الآن فيندفع إليه وللفوز على الأقران ، ولولا ذلك ما عمرت الأرض بالسكان ولا انتشر فيها نوع الإنسان ، ومن هذا القبيل السعي إلى اكتشاف القطبين الشمالي والجنوبي ، وارتياد المناطق المتجمدة وما حولهما والاهتمام باجتياز البحار والقارات بطيارات تسابق النور في الهواء ، ففي كل ذلك لا يجد الرواد باباً للكسب ، ولا طريقاً للرزق ، لذلك تحيط باسمائهم هالة من المجد لا يفوز بها كثير من العلماء ، لأن إقدامهم على اقتحام المخاطرة وصبرهم ، وشجاعتهم في مجالدة الشدائد التي تعرض لهم تضرب على وتر حساس في النفس ، فَيَنْظر إليهم الناس نظرة الإعجاب والإكبار فيجعلونهم في مرتبة عالية .

لقد بلغ الروّاد إلى أقاص الأرض وساروا في مناكبها العامرة والغامرة شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، هنا يردون صحراء قاحلة ، وهناك يصعدون على قمة جبل شاهق ، وهناك يقتحمون مغارات من الجليد أو أدغالاً تعج بالحيوانات الضارية ، والأفاعي السامّة .

الفوز لهم مرتبة :

ولم يبق أمامهم سوى أعلى طبقات الجو وأعمق أغوار البحار : والرواد يسير بعضهم في إثر بعض يفوزون آناً ويفشلون آونة ، ولكنهم مهما تعددت وجوه الفشل والفوز فإنهم يتخذون من الفوز مرتبة يرقون عليها إلى فوز آخر . ويتربصون للفشل حتى يثأروا لإخوانهم منه بفوز جديد .

ثم انطلقت الصواريخ لتعبر أجواز الفضاء تتخطى مجال الجاذبية

الأرضية وتكشف برواده أسرار الوجود على القمر وقد تبارى في ذلك الدولتان : أمريكا ، وروسيا منذ ١٩٥٧ م وشاركتهما الدول الأخرى ، وقد عبّر الشعراء عن ذلك فقال المرحوم محمود غنيم في قصيدة له بعنوان : (على سطح القمر) :

ليهنك يا أبولو الانتصار بربك كيف طرت بهم وطاروا؟
وكيف حملت ركبك في سلام فقرّبهم على القمر القرار؟
وكنا نحسب الأفلاك خلقاً غريباً لا يزور ولا يزار!!

ويواصل الشاعر المصري (محمود غنيم) قصيدته الرقيقة مبيناً إن حلم البشرية في الرخاء والسلام أجدى عليها من الوصول إلى القمر واختراق أجواز الفضاء :

يقول الناس في شرق وغرب فخار لا يعادله فخار
ومجد لا يفوز به سوى من له دأب عليه واصطبار
ومهر المجد إن تخطيه غال وبعض المهر موت واحتضار
تعالوا ننكر للحرب حلاً وإلا حاق بالأرض الدمار
ولغز الموت استعصى عليكم ففخركموا بعلمكم اعتذار

الارتحال سمة عربية :

● وقد ارتحل العرب منذ فجر التاريخ من ديارهم وأحيائهم طلباً للمرعى أو صلحاً بين القبائل ، أو وصولاً إلى بلاط ملك من الملوك فقد ارتحلوا إلى الشام حيث الغساسنة ، وارتحل إليها حسان بن ثابت في الجاهلية ومدحهم .

وارتحلوا إلى المناذرة اللخميين في بلاد الحيرة ، واتصلوا

بالنعمان بن المنذر ونال الشعراء جوائزه وعطاياه ولعل أشعار نابغة بني ذبيان خير مثال على ذلك .

وطاف الأعشى ميمون بن قيس الكبير ببلاد العرب كلها ليجمع المال من مدائحه وليحصل به لذاته في الخمر والطعام والنساء ، وهذه هي الأحامرة الثلاثة التي أنقذت ماله عن آخره كما يقول في شعره .

كذلك ارتحل عنترة بن شداد العبسي ، والمرقش الأكبر وطرفة بن العبد البكري وغيرهم وغيرهم .

وفي الإسلام اتصل العرب بجيرانهم من الأمم الأخرى ، اتصلوا بالفرس وبالروم والأحباش ومصر بفضل الدين واللغة العربية التي بسطت سلطانها على هذه البلاد المفتوحة لأنها لغة الضاد الطامحة والحريصة على أن تسع وتهضم كل ما تستطيع أن تلقاه أمامها من أنواع البحث والعلم والحضارة على اختلاف أنواعها وأنماطها ، فكل ما كتبه اليونان ، وأكثر ما كتبه الرومان ، وكل ما كتبته الشعوب الإفريقية والأسيوية التي عرفها الغرب ـ كل هذه الثقافات ، وكل هذه الحضارات أساغتها اللغة العربية ، وحولتها إلى ثقافة واحدة ، وحضارة واحدة ، وهي الثقافة العربية ، والحضارة العربية ، واستطاع شاعر كأبي تمام الطائي أن يقول :

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا
بالرقمتين وفي الفسطاط وأخواتي
وما أظن النوى تمضي بما صنعت
حتى تبلغني أقصى خراسان

وأذكر هنا حول هذه النقطة المحاضرة القيّمة التي ألقاها الدكتور طـه حسين في المؤتمر الثـاني للأدبـاء العرب الـذي انعقـد ببلودان السـورية عـام ١٩٥٦ وأرى فائـدتها الجمـة عند الحـديث في هـذا الموضوع .

[فائدة الرحلات وآدابها]

أدب الرحلات فن من فنون القول العربي يصف مجالات الحياة المتعددة للرحّالة الذي سجل رحلته أو حكاها لغيره ثم سجلها ، وهي منابع ثرية بمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصـور ، فالرحّالة وهو يطوي الأرض اثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مـظاهر مختلفـة في الحياة يشـاهدهـا أو يسمعها أحيـاناً وينقلهـا في رحلتـه ، ولا شـك أن الـرحـالين يختلفـون فيمـا بينهم في دقـة ملاحظتهم، وفي درجة اهتمامهم ، وفي نوع هذا الاهتمـام ، كما يختلفون أيضاً في درجة صدقِهم وأمانتهم ، وفي تنوع فهمهم للأمور تحت الظروف المتغايرة التي يخضعون لها ، ومع ذلك فإننا ننظر من هذه الناحية إلى الرحلات كمبدأ وككل ، مهما كان بينها من اختلاف وتنـوع في الاتجـاه والتقـديـر ، ومن هنـا كـان للرحـلات قيمتـان عظيمتان : قيمة علمية ، وأخرى أدبية .

القيمة العلمية للرحلات

● **أما القيمة العلميـة :** فقد تـأتى لها ممـا تحتويـه معظم هـذه الـرحلات للكثيـر من المعارف الجغـرافية والتـاريخية والاجتمـاعية

والاقتصادية وغيرها مما يدوّنه الرحّالة تدوين المعاين في غالب الأحيان ، من جراء الاتصال المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته ، وإذا حددنا هذه العلوم بأنها تسجيل الظاهرات المختلفة المتعلقة بميادينها ودراسة هذه الظاهرات وتفسيرها ، فإن الرحّالة يمثل دور الناقل لهذه الظاهرات ليضعها بين أيدي الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع مثلاً ، كل بحسب اختصاصه وهو يقرب من أحدهم بمقدار ما يلجأ إلى دراسة ظاهرات اختصاصه وتفسيرها ، فإن كان علم الجغرافيا مثلاً يدرس ظاهرات سطح الأرض الطبيعية والبشرية ، ويقوم منهجه في ذلك على تسجيل هذه الظاهرات أو تفسيرها وتوزيعها على سطح الأرض إنما يعمل في خدمة هذا العلم من هذه الناحية على الأقل .

فهو عندما يصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقاليم ، والمدن والمسالك ويتحدث عن المناخ والطبيعة ، وعن ظاهرات توزيع السكان وغير ذلك مما يعتبر من صميم الدراسات الجغرافية إنما يعتبر من هذه الناحية مرجعاً أساسياً ومعيناً كبيراً للعالم الجغرافي الذي يدرس تلك الموضوعات ، ومثل ذلك يمكن أن يقال في الرحلة بالنسبة لباقي العلوم التي يتعرض لمجال درسها ، ومن المعروف أن بعض الجغرافيين والمؤرخين العرب يعتبرون رحالين إذ كانوا يجمعون مواد موضوعاتهم عن طريق الرحلة قبل أي طريق آخر . . .

ومن المتفق عليه أن الرحّالين العرب قدموا على مر العصور خدمات جليلة في دراسة أحوال بلادنا العربية والإسلامية من مختلف نواحيها ولم تقتصر إفادتهم في ميدانهم هذا على البلاد الإسلامية

وحدها ، وإنما تعدوها في رحلاتهم وأخبارهم إلى بلاد أجنبية أخرى في آسيا وإفريقيا وفي أوربة فيما بعد ولما يكن وصلها الإسلام ، فأمدونا عنها بمعلومات من الدرجة الأولى خصوصاً إذا قورنت هذه المعلومات بما كان العالم يعرفه عنها في القرون الوسطى حتى الكشوف الجغرافية المتأخرة عند الأوربيين .

الرحلات وقيمتها الأدبية

● **القيمة الأدبية** : القيمة الأدبية للرحلات تتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب ، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني .

وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من مُتْعةٍ ذهنية كبرى مما حدا بأستاذنا الدكتور / شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب خير رد على التهمةِ التي طالما اتهم بها الأدب العربي ، تهمة قصوره في فن القصة .

وقد صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللهو اللغوي والعبث اللفظي والتكلف في تزويق العبارة إيثاراً للتعبير المؤدي للغرض لنضجِهِ بغنى تجربة صاحبه مما يفتقده كثير من الأدباء المحترفين في بعض عصورنا الأدبية . ويقرر د/ حسني محمود حسنين صاحب كتاب : (أدب الرحلة عند العرب) : إن أسلوب أدب الرحلة لم

يتخلص من بعض العيوب : فهو يعتمد على السجع أحياناً ، وينحو منحى الجفاف والصرامة العلمية أحياناً أخرى .

مميزات أدب الرحلات

ومن أهم مميزات هذا الأدب أيضاً : تنوع مادته وغناها ، وهو يتراوح بين العلمية والشعبية والواقعية والأسطورية . تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة .

وبذلك يمكن لنا اعتبار أدب الرحلات العربي نمطاً من أنماط الأدب وفناً من فنون القول الأدبي وتتجمع فيه أساليب القصة والمسرحية والمقالة الأدبية دون أن يخضع لمعاييرها ومقاييسها التي قررها الادباء والنقّاد .

رحالونا العرب قبل وبعد
ابن بطوطة

الجوابون من العرب قبل ابن بطوطة وآثارهم :

تقديم :

لقد اقتضت أحوال البلاد الإسلامية أن تكثر الرحلات حين اتسعت رقعة الإسلام ، وانشعبت سلطة الخلافة بين الملوك والامراء ، حتى استقل بعضهم بحكم ما ولي من البلاد ، إذ كانت عناية الخلفاء حينئذ منصرفة إلى توثيق عُرا المودة بين اولئك الامراء ، ليقووا على صد غارات من يناوئهم من الاعداء وقمع ما يحدث من الفتن في داخل البلاد .

فجابوا البلاد لدراسة أحوالها ومعرفة سهلها ووعرها ، وجبالها وأوديتها ، وطرقها البرية والبحرية ، وما تنتجه أرضها من أنواع الغلات ، حتى يجبى الخراج بنسبة ذلك ، ونظموا البريد وقاسوا الأبعاد بين البلاد .

ومن اولئك الجوابين الذين ساحوا في القرن العاشر الميلادي : ابن خرداذبة سنة ٩١٢ هـ ، واليعقوبي ، وقدامة سنة ٩٢٢ ، والبلخي سنة ٩٣٤ ، وابن حوقل سنة ٩٨١ . وقد كتبوا فيما شاهدوه من أحوال البلاد التي زاروها كتباً قيمة .

وقد كانت الرحلات في أول أمرها رسمية لإيجاد الصلة والتعاون بين امراء البلاد وحكامها . لهـذا لم يتجاوز الجـوابون حـدود البلاد الإسلامية إلى غيرها ، فكانوا في كـل ما كتبـوه لا يعدون وصف مـا شاهدوه في بلاد المسلمين وهذا ما جعل رحـلاتهم ضيقة النـطاق ، ذات فائدة محدودة .

ولكن التجـار من المسلمين وغيـر المسلمين اجتـازوا البـلاد الإسلامية إلى ما تاخمها من الممالك الأجنبية ، يطلبون مـا فيها من عروض التجارة ، وابتغاءً للرزق بالضربِ في الأرض ، فجابوا أقطار الأرض شمـالاً إلى بلاد الفـراء ، وطلبوا المعـادن في الجنوب حتى مقاطعات النوبة ، وفي الغرب وصلوا إلى جبل طارق . وفي الشرق إلى بلاد الحرير والعاج وأقطارها المختلفة .

وبالرحلات الرسمية والتجارية دُرِستْ أحوال البلاد الإسلامية وما يجاورها من الممالك . ولكن التجار لم يكونوا ليتحروا الصدق فيما ينقلون من الأخبار ، وما يشاهدون من أحوال الأمم التي خالطوها ، فألبسوا جـل حكايتهم وأخبـارهم ثوبـاً من الخيال ، جعلهـا سائغـة مقبولة ، وإن بَعُدت من الحقيقة . وفيما ذكر في سفـرات السندبـاد البحري ، على ما فيها من الخيال ، ما يدلنا على ما كان يقاسيه تجار ذلك العهد من مشاق السفر وويلاته .

وهناك عدا ما تقدم من الأسبـاب السياسيـة والتجاريـة سبب مُهِمْ يدعو إلى الرحلة وهو أداء فريضة الحج ، فقد أتـاحت هذه الأسفـار لكثير من قصّاد بيت الله الحرام أن يصفوا مـا يشاهـدون في طريقهم للحـج . ومن هؤلاء ابن جبيـر الأنـدلسي ، وابن سعيـد المغــربي وغيرهم من الرحّالة .

آثـارهم :

● **معجم البلدان** ـ وهو لياقوت الرومي [الحموي] . كتبه بعد أن رحل للتجارة ثلاث مرات وطوف ما طوف . ثم أتبعها سفرات أخرى لم تنقـطع إلا قبـل وفـاتـه بسنتين فقط من ١١٧٩ إلى ١٢٢٩ من الميلاد . وقد كان لكتابه هذا أثر عظيم في علم الجغـرافية . ويعـد (معجم البلدان) من الكتب النـادرة التي لا يستغني عنهـا عـالم أو متعلم .

● **عجائب البلدان** ـ وهو لأبي دلف بن مهلهل الشاعر ، وهو من أقـدم جوّابي العـرب وسيّاحهم . خـرج من بلاده سـائحاً ، تشـوقه غرائب الشعوب ، وتدفع به الرغبة في رؤية عجـائب المخلوقات ، فسـافر إلى بـلاد الهند مـع أحد امـرائِها ، فـزار بلاد الهنـد وكشمير وأفغـانستان . ثم كتب كتـابه هـذا . وقد استعـان به كثيـراً يـاقـوت والقزويني في مادتهم .

● **تـاريخ الهنـد** ـ لأبي الريحـان محمد البيـروني ، الفيلسوف الرياضي الفلكي الجوّاب وقد كان هو الآخر مولعاً بالأسفـار ، مُحِباً للانتجاع والغربة ، فسافر إلى بلاد الهند وجاب آفاقها ودرس أخلاق أهلها دراسة علمية صحيحة أساسها النظر والاعتبار فجـاء كتابـه من أوفى الكتب تعريفاً بأحوال الهند كما يجمع الكثير من الباحثين .

● **المسالك والممالك** ـ لأبي عبيد البكري الأندلسي ، ألفه بعد سياحة طويلة المدى في بلاد الشرق والغرب .

● **رحلة ابن جبير** ـ ألفها بعد أن جاب بلاد الشرق مرتين ، وقد

كتبها بعبارة مؤنقة ، إلا أنه يغلب فيها السجع المتكلف . وهي كتاب جزيل الفائدة جليل النفع . وتمتاز هذه الرحلة عن رحلة ابن بطوطة بصدق الوصف ودقة الرواية وحسن العبارة .

● **المُغَرب** ـ وهو للكاتب الأديب ابن سعيد المغربي ، وقد أودعه كثيراً من أخبار أسفاره إلى بلاد المشرق ، بعد أن رحل إلى بغداد وحلب وبلاد الشام وبلاد أرمينية ، وما زال كلفاً بالأسفار وللتنقل بين الأقطار حتى مات في دمشق وهو راجع إلى بلاد المغرب سنة ١٢٧٤ م .

أضواء على بعض الجغرافيين العرب وعلاقتهم بالرحلة

عرضت كتب التراث للكثير من روّاد الرحلة والارتحال العرب الذين كان لهم باع واسع في ارتياد البلاد ومعرفة المسالك والممالك ومنهم :

ـ **المسعودي** : وهو علي بن حسين المسعودي .

ولد ببغداد ، وطلب العلم والتجول منذ نشأته ، وجاب أعظم قسم من الممالك الإسلامية وغيرها من البلدان المحيطة بها ، وكان مولعاً بالعلم والأدب والحكمة والتاريخ والجغرافية .

نزل على اصطخر سنة ٩١٥ هـ ثم رحل إلى الهند وتفحص بعض أقطارها ثم عبر البحر الجنوبي ، ومنها اجتاز البحر إلى جزيرة العرب ، وربما انقطع عن الرحلة سنة ٩٤٠ هـ فلزم بيته واشتغل

بتصانيفه الجليلة التي أثبتت له عظيم الشهرة وتوفي سنة ٩٥٧ م (٣٤٦ هـ).

وللمسعودي كتاب (أخبار الزمان) ، ومن آثاره (الحدثان في التاريخ) وهو تاريخ كبير في التاريخ القديم ، يتحدث فيه عن هيئة الأرض ومدنها ، وجبالها ، وأنهارها ، ومعادنها وأخبار الأبنية العظيمة ، وشأن البدء وأصل النسل ، وانقسام الأقاليم وتباين الناس ، ثم يتبع ذلك بأخبار الملوك الغابرة والأمم الدائرة في القرون الخالية ، وأخبار الأنبياء ، ثم ذكر الحوادث سنة سنة إلى وقت تأليف مروج الذهب سنة ٣٣٥ هـ.

ومما قاله المسعودي في مقدمة كتابه مروج الذهب : إنه أراد فيه إجمال ما بسطه في كتاب أخبار الزمان ، واختصار ما وسطه في كتابه الأوسط وذكر فيه ما أودعه ما في ذينك الكتابين مما ضمنهما وغير ذلك من أنواع العلوم وأخبار الأمم . وطبع كتاب مروج الذهب في مصر كما طبع في باريس مترجماً إلى الفرنسية في ثمانية مجلدات ، وقال عنه ابن خلدون [عن كتاب مروج الذهب للمسعودي] في مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر : شرح المسعودي فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلثمائة غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ، ووصف البلدان والبحار والممالك والدول ، وفرق شعوب العرب والعجم ، فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً يعولون عليه في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه . اهـ.

ـ ابن حوقل : هو أبو محمد بن العلي الموصلي التاجر الرحالة . وهو من جغرافي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

ولد في بغداد ، ونشأ بها ، وأقبل على التجوال في البلاد الإسلامية في عهد المسعودي يوم انقطع الأخير عن الارتحال إلى بيته ، واستمر ابن حوقل في حل وترحال ثماني وعشرين سنة وذلك من سنة ٩٤٢ م إلى ٩٧٠ للميلاد ودوّن أخبار رحلته ٩٧٦ م في كتاب سماه (المسالك والممالك) اقتصر فيه على ذكر صفات الممالك الإسلامية ولم يتعرض لغيرها إلا قليلاً متنصلاً من ذلك في كتابه المذكور : « أما بلاد النصارى والحبشة فلم أتكلم عليها إلا يسيراً ، لأن الحكمة والدين والعدل وانتظام الأحكام يأبى أن أثني عليهم بشيء من ذلك » وبالطبع نحن لا نوافق ابن حوقل على كلامه هذا . وقد ذكر أبو الفدا كتاب ابن حوقل في مقدمة كتاب تقويم البلدان وقال : إن كتاب ابن حوقل مطول ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً غير أنه لم يضبط الاسماء ، وكذلك لم يذكر الأطوال ولا العروض (يقصد : خطوط الطول وخطوط العروض) وصار غالب ما ذكر مجهول الاسم والبقعة . اهـ.

قرأ ابن حوقل ما سبقه وعاصره من كتب جغرافية ، وشغف بهذا العلم ، فصمم على أن يضع كتابه الذي قرر أن لا يأخذه من أفواه الناس ، ولا مما قرأه ، وإنما يأخذ عن عينه ومشاهداته في العالم الإسلامي فقط ، فكان تطوافه الذي استمر ثلاثين سنة ، ثم وضع كتابه ، وتصادف أن تشيع ، وكانت مصر يحكمها الفاطميون ، فتحول داعياً لهم ، واتجه بكتابه هذه الوجهة السياسية ، ويتضح ذلك في حديثه عن البلاد التي كان يهم الفاطميين أن يستولوا عليها مثل الأندلس.

وعندما نقرأ ما كتبه عن الأندلس نحس أنه يكتب تقريراً يتكلم عن غنى الأندلس ، وخصب أراضيها وعظيم جباياتها ، كما يشير

إلى ضعفها الحربي وأنه من السهل على الفاطميين فتحها ، فتتحول هذه الديار إلى ملكهم وتلك الأموال إلى خزائنهم ، وكان يحكم الأندلس إذ ذاك دولة بني أمية التي أسسها عبد الرحمٰن الداخل.

وقد عاد ابن حوقل إلى رمي الأندلسيين بالضعف في الحرب ونقص استعدادهم فيها ليزين للفاطميين فتح هذه البلاد . ولا يهمنا ذلك الآن ، إنما تهمنا طريقته في الوصف الجغرافي ، فهو يقف ليعطينا معلومات طريفة عن البلدان ، وهي معلومات رحّالة يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً ، ينقل إلينا فيه البلدة التي يصفها بكل ما فيها من أبنية وأسواق وحمامات ومساجد ومطاعم وملابس وعادات ، وهو مع ذلك لا يصمت فيذم كل من لا يدين بالولاء للفاطميين ويشنع عليهم دون هوادة.

وبهذه الرحلة رحلة ابن حوقل (المسالك والممالك) أطلعنا على حياة أهل البلدان التي وضعها بجانب ما تحدث عن المسالك ، فكتابه ليس كتاب سرد جغرافي ، وإنما هو رحلة كبيرة في العالم الإسلامي ، رحلة جغرافية بديعة.

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، من بيت المقدس بفلسطين ، وإليه ينسب ، وهو في رأي بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين العرب في جميع عصورهم ، عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وجذبته الكتابة في علم الجغرافية ، فضرب في العالم الإسلامي وتنقل في ربوعه ، ثم أخذ يدون هذا

الكتاب « أحسن التقاسيم » مصوراً أحواله الجغرافية والعمرانية ، مهتماً اهتماماً شديداً بالحديث عن اختلاف أهل البلدان الإسلامية في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم وتقودهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم وإليهم ، ومعادن السعة والخصب ، ومواضع الضيق والحدب ، والمشاهد والمراصد والخصائص والرسوم (الصفات والطبائع) و(الممالك والحدود).

ابن خرداذبة :

هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد ، صاحب كتاب « المسالك والممالك » الذي طبع لأول مرة في مدينة ليدن بمطبعة بريل ، ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٩ م . بعناية المستشرق دي چويه ويقع في ١٨٣ ص . وإن كنا لا نعرف بالتحديد متى ولد ابن خرداذبة أو متى كانت وفاته ، ولكن يظهر أنه ولد في نحو عام ٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م ، وتوفي حوالي ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م . وشغل وظيفة صاحب البريد والخبر بنواحي الجبال بفارس ، وربما كان هذا هو الذي دفعه إلى أن يضع كتاباً في علم الجغرافية . ذُكِرت له اسماء عشرة كتب في : أدب السماع واللهو والشراب والطهي وأنساب العرب وغيرها . ولم يصلنا غير كتابه في المسالك والممالك الذي يعتبر أول مصنف كامل يصلنا في الجغرافية الوصفية ، واستغرق تأليفه الفترة من ٢٣٢ إلى ٢٧٢ هـ/ ٨٤٦ ـ ٨٨٥ م . لقد قدّم ابن خرداذبة بدوره وصفاً غزيراً عن بلاد الهند وسيلان والولايات الشرقية والهندية وبلاد الصين كلها ، لقد كان أثر هذا الكتاب واضحاً في كتابات من جاء بعده من الجغرافيين المسلمين المتقدمين أمثال :

اليعقوبي ، وابن رسته ، وابن حوقل ، والمسعودي . وكانت المادة التي جمعها مصدراً لما كتبوه.

الإدريسي:

لم يكن بطليموس هو الأستاذ الحقيقي في جغرافية أوربا ، لكنه الأدريسي : أبـو عبد الله محمـد بن محمـد الإدريسي الصقلي ، صاحب كتاب : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق والذي فرغ من كتابته في يوم الجمعة أول رجب سنة ٨٧٢ هـ.

كان مولد الإدريسي سنة ١١٠٠ م ، وتخرّج في قرطبـة ، كان يعيش بـالرمـو في بـلاط روجـار الصقلي في منتصف القـرن الثاني عشر . ومصـورات الإدريسي التي تعترف بكـروية الأرض كانت تتويجاً لعلم المصورات الجغرافية في العصر الوسيط بوفرتها وصحتها واتساعها.

وفي كتابه الذي ألفه باسم روجير ، ويسمى كتاب « روجار » ، أو الكتاب الروجاري ، والمعروف في تراثنا باسم « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » قسم العالم الجغرافي اعتماداً على موازنة بين الأرض والكرة سبعين جزءاً رسم لكل جزء مصوراً وصف به جميع النواحي الخاصة.

ويجدر بنا أن نقر هنا بأن مقاييس الفلك من كشف العرب التي بها كشفوا عن الأخطاء الجسيمة لبطليموس في البحر المتوسط لأن مقاييس المسلمين لخط العرض صحيحة فيما عـدا بضع دقـائق ومقاييس بطليموس تكشف عن خطأ يبلغ عدة درجات.

لقد قام أجـدادنا العـرب ، وهـم محتكون في علم الجغـرافية

بأسفار كثيرة ، ففي سنة ٨٥١ م نشر مؤلف عربي غير معروف قصة رحلته التي قام بها إلى الصين وذلك بالطبع قبل رحلة ماركو بولو بـ ٤٢٥ عاماً ـ وهو رحّالة إيطالي كان ولد في فينيسيا (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤) عبر آسيا كلها عن طريق منغوليا ، وعاد عن طريق سومطرة الأندونيسية بعد أن قضى سبعة عشر عاماً في خدمة كوبلاي الأكبر ، جمع قصة رحلاته في كتابة . ماركو بولو يعد كتابه بالنسبة لأوربا وثيقة هامة وموسوعة جغرافية لقارة آسيا كلها.

سياح وملاحون :

ونبغ في الإسلام كثير من السيّاح الملاحين الذين خاضوا عباب البحر وجروا فيه إلى أقاصي المعمورة : وأشهر هؤلاء السياح بل أولهم عهداً فيما ذكره المسعودي تاجر تسمى (سليمان) نبغ في النصف الثاني للمائة التاسعة للميلاد.

وكان مقيماً ببلدة سيراف على ساحل بحر فارس ، وسيراف هذه كانت الفرضة (المينا) العظيمة لفارس ، وكانت السفن تقصدها من جميع الأطراف حتى من الصين مشحونة بالسلع والأموال لاتساع نطاق التجارة يومئذ بين بلاد فارس والمشرق الأقصى.

ورحل سليمان طلباً لأسباب التجارة ، واجتاز بحار الهند ماراً بين سيلان وملقا ودخل بحار الصين ، وقد دوّن أخبار رحلته أبو زيد البلخي في حدود سنة ٨٨٠ ، وزاد عليها ما نقله عن غيره ، وحدثه به السيّاح الذين احتلوا سواحل الصين ، وأخصهم ابن وهاب الذي جاب سواحلها ، وتفحص أحوال أهاليها ، وقصد قاعدة المملكة فدخلها ، وهي فيما رواه على مسيرة شهرين من البحر ، وقابل

سلطانها ، وقد ترجم كتاب أبي زيد إلى الفرنسية وطبع في باريس ١٧١٨ م ، وهو مفيد لأنه أول كتاب حوى وصف البلاد الصينية .

ومن الاتصال بالصين عرف استخدام المحك (وهي الإبرة المغناطيسية) .

ـ ومنهم (البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي) :

المتوفى ١٠٣٨ صاحب كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية في النجوم والتاريخ وهو أول من حقق صفة بلاد السند وبلاد الهند الشمالية .

ـ ونذكر الإدريسي وهو أشهر جغرافي الإسلام ونذكر **أبا المجد إسماعيل بن هبة الموصلي** وكتابه مزيل الارتياب عن مشتبه الأنساب .

ـ ونذكر ياقوت الحموي ونقول عنه :

وطالع العربية وحصّل العلوم واشتغل بداءة بدء في الاتجار وكان مولاه ينفذه إلى الأقطار في طلب أسبابها ، لأنه يوناني المولد أسر في حداثته فبيع من تاجر حموي مقيم ببغداد ، ونشأ في ظل هذا المولى ، ورحل ياقوت غير مرة إلى جزيرة كيش الواقعة في وسط بحر فارس ، وكانت هذه الجزيرة وقتئذ محط رجال التجارة بين المشرق والمغرب ، وفيها كانوا يتبادلون متاع الهند بحاصلات مصر وبلاد الشام والمغرب الأقصى ، ولما عتقه مولاه تعاطى التجارة لنفسه ولا سيما الاتجار في الكتب والتأليف وذلك ما سهل له الإحاطة بجميع العلوم ، وإدخار أشتات الفوائد التي دوّنها في

مصنفاته الجليلة ، وزاد عليها ما شاهده في أسفاره وحصل عليه في تطوافه وقد قضى سنين في الرحلة والتجوال في بلاد العرب ومصر والشام والجزيرة وخراسان حتى شواطىء نهر جيجون ، ورحل إلى القسطنطينية فيما رواه بعضهم عنه.

وله كتاب معجم البلدان وهو من أجل الكتب الموضوعة في الجغرافية وقد أحرز السبق عليها ، لأنه جاء أعم من غيره لترتيبه على حروف المعجم.

وذكر أمزجة البلدان وأهواءها ومطالع نجومها وأنواءها وما اختصت به من الخصائص ، وضبط تصحيح الاسماء واشتقاقها وألمع بذكر من دفن فيها من الشعراء ومن ينسب إليها من العلماء والمحدثين.

ثم نذكر القزويني وأبا الفدا وغيرهم وغيرهم.

ـ رحلة الحج :

اهتم بهذه الرحلة حمد الجاسر العالم الأديب السعودي الذي ألف المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، ومعجم قبائل المملكة العربية السعودية وأصول هذه القبائل ، وأصول الأسر المتحضرة في نجد ، ونشرها في مجلة العرب التي تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر في الرياض ومجلة العرب كما هو مصدر على غلافها تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري ، واهتم بها هذا العالم باعتبارها مسجلة اسماء بلاد مر عليها صاحب الرحلة وهو ذاهب إلى الحج ، فالرحلة بما فيها من هذه الاسماء من صميم اهتمامات هذا الأديب العالم.

اهتمامات هذا الأديب العالم :

وكـانت الرحلة للملك الأشـرف قـايتبـاي ، وتسمى : كتـاب (المجموع الظريف في حجة المقام الشريف).

وقد ألفه الأشرف قايتباي لتدوين أخبار رحلته إلى الحج وكان من المماليك واهتم بتقوية الجيش ، وعنى بالعمران في مصر والشام ، ولا تزال الآثار التي خلفها أو بعضها باقياً إلى الآن.

وأسلوب الرحلة ركيك أقرب إلى العامية بخلاف ما يثقل قارئه من الاسماء التركية التي تكاد لا تحصى ، ومن ذلك : ذكر بعض ما وقع له من المحاسن بمكة المشرفة.

ـ منها أنه أبطل ما كان على الصيادين بجدة من المكوس.

ـ ومنها أنه أمر بإعادة نصف العدني (أي رسوم السفن الواردة من عدن) للسيد الشريف محمد بن بركات.

ـ ومنها أنه لم يتعاط محاكمات مدة إقامته ، ولا سفره ذهاباً ولا إياباً بل مشتغل بالعبادة.

ـ ومنها أنه مدة سفره وإقامته لم يكن ضرب غلاماً ولا غيره.

ـ ومنها زيادة تواضعه مع الفقراء ، وانـطراح نفسه ، وتضـرعه وخضوعه.

ـ ومنها كثرة طوافه في الليل وغالبه خفية.

ـ ومنها كثرة الصدقات الظاهرة ، وكثرة الصدقات الباطنة الذي (كذا) لم يطلع عليها غيره.

ـ ومنها أنه لما طلع إلى بيت الشريف فكان في غاية ما يكون من

الخضوع والاعتراف لمولاه وسيده ، برق العبودية والشكر له على ما أنعم به عليه.

ـ ومنها ما فعله من الخير والقربات والصدقات الجاريات بمدرسته التي انشأها بمكة المشرفة بباب السلام.

ـ ومنها أنه قرر بها مشايخ أربعة ، من كل مذهب واحداً ، ومعهم من الطلبة أربعون نفراً ، يحضرون في كل يوم مجتمعين ، وأيام الدروس يجتمع كل شيخ مع طلبة مذهبه ، ويدرس العلم وجعلهم من أهل مكة ، وقرر بالرباط في الخلاوي الآفاقية ، والغرباء وجعل لهم شيخاً ، قرر لهم خبزاً في كل يوم ودشيشة وقرر أيتاماً بمكتب السبيل ، وأرباب وظايف كالمؤذنين والبوابين والفراشين وغير ذلك ، وجعل لهم ما يقوم بحالهم في كل سنة ، على ما شرطه في وقفة ، تقبل الله منه وذكرها يطول.

ثم تعجل مع الأول في يوم الخميس المبارك الثاني عشر من شهر ذي الحجة وعاد إلى مكة المشرفة ، وسار الأول ، واستمر مقيماً بمكة المشرفة بقية يومه ، وبات ليلة الجمعة ، وصلى بها الجمعة ، وحضر أمير المحمل بالحاج ، وتوجه بقية يوم الجمعة من مكة.

واستمر مقيماً بمكة المشرفة إلى بعد صلاة العصر في يوم السبت المبارك الرابع عشر من شهر ذي الحجة ، طاف طواف الوداع ، وتوجه باب عزورة (باب الوداع الآن) من طريق الشبيكة إلى أن نزل بسبيل الخوجي ، وحضر في خدمته السيد الشريف أمر مكة المشرفة ، وقاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة وجماعته ، والقاضي أبو الفتح نايب جدة ، وتجار مكة وأكابرها ، وألبس السيد

الشريف محمد بن بركات أمير مكة المشرفة كاملية مخملاً أحمر تماسيح ذهب ، مفرية سموراً وولده السيد بركات كاملية مخملاً أحمر سموراً ، والقاضي برهان الدين من ظهيرة كاملية صوف مفرية سموراً . . . .

ـ هذا أنموذج من أسلوب الرحلة وهو أنموذج للكتابة رديء ، وكان هذا في القرن التاسع الهجري ، وكان أسلوب التأليف والكتابة ضعيفاً لكنه ليس بهذا الضعف المخزي .

والكاتب لهذا الأسلوب هو أحمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني المعروف بابن الجيعان .

وقد بعدت في الاختيار عن الاسماء التركية وألقابها حتى لا أشق على القارىء .

وأياً ما كان الأمر فهدف الرحلة نبيل شريف ، وقد أحسن صاحبها كل الإحسان بما أولاه من عطايا ومنح ومواهب من حيث الامراء ورؤساء البلاد والمدن التي مر بها فرحمه الله رحمة واسعة وتقبله في الصالحين الأبرار.

في العصر الحديث :

ومن الرحالين العرب في العصر الحديث القاضي المصري محمد سليمان عضو المحكمة العليا الشرعية ، الذي كان يحرص في رحلاته على الزي العربي المتمثل في زي الأزهر وعلمائه .

وقد رزق هذا الرجل قوة الملاحظة وحسن البيان ، ولهذا يستحق منا الإعجاب برسائله تحت عنوان (رسائل سائر) التي كانت تنشرها تباعاً جريدة المقطم المصرية .

ـ رحلته إلى فلسطين :

جاب محمد سليمان أقطاراً وبلاداً ورصد عن هذه البلاد ما رصد وسجل مشاهده على أهلها فرحل إلى دمشق الفيحاء ، وإلى غيرها من البلاد العربية ورحل إلى أثينا ، ووازن بين أهلها وحسن نظامهم في حياتهم ومواطنيهم ، الأولون كانوا يونانيين في كل شيء تلمح قوميتهم في الاسماء واللافتات بخلاف مواطنيه .

وقال عن رحلته إلى فلسطين :

اعتزمنا السفر إلى فلسطين ، فطالعتنا انباؤها بالمزعجات وصادف يوم شخوصنا منتصف يوليو الذي ضرب موعداً فيها لمقاومة الانتداب [الإنجليزي على فلسطين وما تلاه من أحداث] فلم نقلق ولم ندبر ، إذ كان الاتكال على الله قوياً ، وليس يحزننا أن نرى قوماً من أخواننا بني الشرق يكدحون ويجدون في سبيل الحياة ، ولا خوف علينا إذ كنا عن الشعب مبتعدين ، على أننا رأينا السكينة والهدوء فيما مررنا به من المدن والقرى ، وإن كان الكلام بدءاً وعوداً في هذه القضية التي تهم ابناء تلك البلاد ولا يكادون ينسونها ، كما أنها تهم بني الشرق قاطبة ، وقد أتيح لنا أن نختلط بطبقات عدة ، وكنا نتسمع لهم ، فرأينا أحاديثهم تدور على ثلاث كلمات يكاد الإجماع ينعقد عليها .

أولاً : الحسرة والندامة على حكم الترك وتمنى أيامهم أن تعود .

ثانيا : الغضب على الشريف ورميه بكل كريهة .

ثالثاً : التواصي بمقاطعة اليهود .

● بئر سبع :

و [آثار ملك زائل شُيدت على أمل الخلود]

تلك آثار الدولة التركية ببئر سبع وغيرها مما رأيناه للآن بفلسطين آثار ملك زائل شيدت على أمل الخلود ، فبئر سبع بلد كأنه في مناخهِ وأرضه وبنائه عين شمس أو مصر الجديدة أقامها الترك من نحو عشرين عاماً على رسم الهلال في سُرتِها مسجد فسيح بمئذنة من طراز مآذن القسطنطينية وفي وسط الهلال (سراي) الحاكم وداره ومكان (البوليس) والمدرسة ودار البرق والبريد مبنية جميعها من الحجر الصلد على نظام يسر العين بهاؤه ورواؤه ، مبانيها ذات سقوف من القرميد مدحية للمطر ، والشوارع واسعة متقاطعة ، وبها الماء والنور ، وفيها من بقايا الترك أيام الحرب ما يهول منظره ، ويبقى على وجه الدهر يسجل أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء .

والكاتب هنا يتعاطف في كتابه مع بني الشرق بل مع أخواته الفلسطينيين وهم تحت حكم الانتداب البريطاني الذي سنه للإنجليز وعد (بلفور) المشئوم فما باله لو رأى القضية الآن وما صارت إليه ؟

وهو يعبر عن أمنية أهل فلسطين في أن يعود حكم الأتراك ويتحسرون على ذهابه وموته لأنهم أصبحوا تحت يد من لا يرحم من الإنجليز واليهود .

وفي أسلوبه نفهم الإصلاحات التي كانت تقيمها تركية وهي تحكم البلاد تحت ظل بقايا الخلافة الإسلامية .

● **وهكذا نجد أدب الرحلة يفيد :**

أ - في الجغرافية ومعرفة البلاد ومناخها والمسالك والممالك .

ب - في التاريخ وتسجيل ما حل بالبلاد من عمران أو تخريب على يد الظالمين .

جـ - في معرفة عادات الناس وتقلبهم في حياتهم ونظام مجتمعهم .

د - أدب الرحلة قريب من أدب القصة ، إذ يسرد الكاتب ما صادفه وقد يجري حوار بينه وبين من قابلهم في هذه البلاد النائية عن موطنه .

هـ - أسلوب الكتابة في أدب الرحلة يتسم بطابع العصر وينعكس عليه ما ينعكس على أسلوب النثر في العصر الذي كتب فيه .

و - أسلوب أدب الرحلة أسلوب شائق بما فيه من واقع غريب وبما فيه من أساطير لا يكاد يصدقها العقل .

ز - ومع ذلك فأدب الرحلة يضيف جنساً من الأجناس الأدبية في النثر إلى جانب أجناسه الأخرى من خطابة ووصايا ورسائل وغير ذلك .

الرحلات :

(أ) رحلات جغرافية :

- المسالك والممالك لابن حوقل (القرن الرابع الهجري) .

ـ أحسن التقاسيم للمقدسي (القرن الرابع الهجري) .

ـ نـزهة المشتـاق في اختراق الآفـاق لـلإدريسي (القـرن الخـامس الهجري) .

ـ آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (القرن السابع الهجري) .

(ب) رحلات بحرية :

ـ رحلة التاجر سليمان (القرن الرابع الهجري) .

ـ عجائب الهند بره وبحره وجزائره ليزرك بن شهريار الناخداه (القرن الرابع الهجري) .

ـ رحلة الفتية المغرورين (عن نزهة المشتاق) .

ـ كتـاب البلدان لابن الفقيه وفيـه كلام عن عـرائس البحـر ، وعنـد القزويني في (آثار البلاد) و (عجائب المخلوقات) .

(جـ) رحلات في الأمم والبلدان :

ـ « تحفـة الأصحاب ونخبـة الأعجاب » و « المعـرب في عجائب المغرب » لأبي حامد الأندلسي .

ـ رحـلات الشاعـر / أسامـة بن المنقذ وحـروب الفرنجـة في كتابـه « الاعتبار» .

ـ رحلات عبد اللطيف البغدادي .

ـ رحلات البيروني .

ـ رحلات الهروي السائح (ت / ٦١١ هـ) .

- رحلات ابن رشد السبتي (ت / ٧١١ هـ) .

- رحلات ابن خلدون .

- رحلة الطهطاوي إلى فرنسا وأوربة .

- كتابات أحمد زكي باشا .

- رحلة اليتانوني إلى الأندلس .

- الجزء الثاني من حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي ، حيث وصف الغرب ومعرضاً من معارض باريس الفرنسية .

- رحلة محمد حسين هيكل باشا للأراضي الحجازية (كتاب من وحي النبوية) .

- رحلة أحمد حسنين باشا إلى الصحراء الغربية .

- رحلات محمد ثابت .

- رحلات محمود تيمور (أبو الهول يطير) .

ثم أهم رحلتين خلفتهما عصورنا الوسطى ، وهما :

- رحلة ابن جبير .
- رحلة ابن بطوطة - وهو موضوع هذه الصفحات المتواضعة .

ابن بطوطة - الرجل، والرحلة :

أما أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجي المشهور بابن بطوطة فهو من أعظم متجولي الإسلام رحلة وأكثرهم استيعاباً للأخبار .

وهو صاحب كتاب (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) .

خرج من طنجة مسقط رأسه ، وتجول في المغرب وإفريقية وطرابلس وبرقة ومصر وفلسطين وبلاد الشام ، وطاف ببلاد العجم والعراق وبلاد ما بين النهرين ، وعرج نحو الجنوب فدخل بحر بربرة وجاء كيلوا على ساحل إفريقية الشرقي ، وعاد إلى هُرْمز مخترقاً القسم الجنوبي من جزيرة العرب ، وجاب بحر فارس المشهور بمغاصات اللؤلؤ ثم ذهب حاجاً ثانياً ورحل من الحجاز إلى الشام ، ومنها دخل الأناضول وتجول فيها .

وكان يتصل بالسلاطين ويوفد منهم إلى ملوك وسلاطين آخرين .

ففي سنة ١٣٥٢ م ذهب رسولاً من سلطان مراكش إلى بلاد السودان وعبر البلاد إلى وراء تمبكتو ثم عاد إلى فارس وفيها وافته المنية سنة ١٣٧٧ م .

ـ ابن بطوطة في السودان [حكاية القاضي والجرادة] :

أقام ابن بطوطة في السودان رسولاً من قبل سلطان مراكش كما أسلفنا وعرف أحوال الناس وعاداتهم ، ووقف على كثير من أسرارهم وأعرافهم ونسوق بعض ما قاله :

وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام ، فأتى أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاماً كثيراً ، فقام القاضي فصدقه ثم صدقهما السلطان وكان إلى جانبي رجل من البيض فقال لي : أتعرف ما قالوه ؟

فقلت : لا .

فقال : إن الفقيه أخبر أن الجراد وقع ببلادهم فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد فهاله أمرها ، فقال : هذا جراد كثير ، فأجابت جرادة منها : إن البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثه الله لفساد زرعها ، فصدقه القاضي والسلطان وقال السلطان عند ذلك للامراء :

إني بريء من الظلم ، ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظلم ولم يعلني فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبه وسائله !! .

ولما قال هذا الكلام وضع الفقهاء عمائمهم على رؤوسهم وتبرؤوا من الظلم . وحضرت صلاة الجمعة يوماً فقام أحد التجار يشكو من طلبة مسوفة ويسمى بأبي حفص ، فقال يا أهل المسجد : أشهدكم في دعوتي إلى رسول الله ﷺ ، فلما قال ذلك خرج إليه رجال من مقصورة السلطان فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذ لك شيئاً ؟ فقال ما معناه : إن رجلاً من أولياء الأمر أخذ منه ما قيمته ستمائة مثقال وأراد أن يعطينه مائة مثقال ، فبحث السلطان عنه فحضر بعد أيام وصرفها إلى القاضي ، فثبت للتاجر حقه فأخذه ، وبعد ذلك عزل هذا الوالي من عمله .

ثم قال ابن بطوطة بعد ذلك : من أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه . . . وفي هذا تناقض كبير بين الشكوى من الظلم ثم نفيه عنهم وإنهم أبعد الناس عنه !!!

وكما نرى فيما سبق أنه أنطق الجرادة إذ عَبّرت عن الظلم والواقع

في البلاد وهذه أسطورة وخيال لا يتفق مع العقل والمنطق ومثل هذا كثير ستجده عند ابن بطوطة .

● ابن بطوطة وكتابه الرحلة :

والواقع أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بنفسه ، وليس الأسلوب الذي نقرؤه فيها أسلوبه ولا السجعات سجعاته ، وهذا الكلام لا يقال على عواهنه ، وإنما أملى ابن بطوطة هذه الرحلة على كاتب السلطان والذي كتبها محرر من المنقطعين إلى بابه (السلطان) أمره أن يضم أطراف ما يمليه الشيخ في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ولنيل مقاصده مكملاً ، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمداً إيضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعْظم الانتفاع بدرها عند تجريده من الصدف .

ويقول الكاتب الذي سجل الرحلة (البطوطية) : وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وشرحت ما أمكنني شرحه من الاسماء العجمية ، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطىء في فك معناها مجهود القياس .

● فهل كان ابن بطوطة أعجمياً لا يتقن الكتابة بالعربية ؟

● أو على الأقل ليست لديه ملكة الكتابة الأدبية ؟

وهذا يثير الشك في الرحلة ولكننا نقرر إن حكايات الرحلة وخرافتها وموضوعاتها التي شدت انتباه صاحبها مما تجعله أكثر قرباً إلى المعتقدات الشعبية ، بل ومن كبار معتقديها وعلينا أن نمدح الرحلة ـ على الرغم مما أثير حولها ـ لأنها تحتوي على كثير من

الموضوعات التي تهم الجغرافي والمؤرخ والعالم الاجتماعي والأديب .

على كل حال سنتناول ذلك تفصيلاً بإذن الله .

الحياة والارتحال

نشأ ابن بطوطة في طنجة وأقام بها حتى ١٣٢٥ . واسمه ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ، وكنيته أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين ويعرف بابن بطوطة ، وكان مولده في طنجة في ١٧ من رجب سنة ٧٠٣ هـ . وقد أقام بها حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره . وقد نشأ بين أهله وذويه في بسطة من العيش وطمأنينة بال ، فلم يكن يخطر له أن يزايل أهله ، ويهجر وطنه ويسافر إلى غير بلاده ، حتى دعاه داعي الحج ، فخرج ملبياً داعي الله .

● إن المطلع على رحلة ابن بطوطة يستشف من خلال كلامه عن نفسه أنه كان شديد التأثر ، يقظ الوجدان ، رقيق العاطفة ، تقياً محباً لوالديه معظماً للأتقياء والصالحين ، يزور قبورهم للتبرك بهم ، ويروي كثيراً من كراماتهم وما ينسب إليهم من أعمال البر ، كإقامة الزوايا والتكايا ، وحبس الأوقاف الكثيرة عليها ، ومما يدل على شدة ورعه وتقواه أنه كان لا يفتأ يذكر أن ما متع به في حياته من نعمة وجاه إنما كان لأنه حج أربع حجات .

أما حبه لوالديه فقد أفصح عنه أيما إفصاح ، حيث يقول في مقدمة رحلته : إنه تركها (فتحمل لبعدهما وجداً عما لقي من الفراق نصباً) وأنه لما عاد من رحلته الأولى وبلغه موت أمه حزن حزناً شديداً قطعه عن كل شيء حتى صلته بحاشية الملك أبي عنان في فاس المغربية .

ونحن لا يمكن لنا إنكار الدور الذي قام به أفـراد حاشيـة الملك الفاسي فهي مصدر ما لقيه من تكريم ونعمة .

ترك الرجل عالمه وسافر لزيارة قبر أمه الحنون . ويحكى عن ابن بطوطة سرعة تأثره وحساسيته الزائدة ونقرأ قوله وقد وصل إلى تونس الخضـراء فبرز أهلهـا للقاء العـالم أبي عبـد الله الـزبيـدي ، ولقـاء أبي الطيب بن القاضي أبي عبد الله النفزاوي . فـأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم عليه أحد لعدم معرفتهم به ومعرفته بهم . فوجد من ذلك في نفسه ما لم يملك معه سوابق العبرة . واشتد بكـاؤه . فشعـر بحـالـه بعض الحجـاج ، فـأقبلوا عليـه بـالسـلام والإيناس . وما زالوا يؤانسونه بحديثهم حتى دخـل المدينـة المنورة ونزل فيها بمدرسة الكتبيين .

وما ظننا برجل يعد من أفضل أصدقائه وأوفاهم له من يقدم عليـه فيلقاه بالبشر والإيناس ، ويكرمه ولو مرة واحدة . ولعمري تلك سجية إن دلت على شيء فإنما تـدل على ما في الـرجل من صفـاء النفس وطهـارة القلب ونقاء السـريرة ، وإن لم يكن فيهـا الاعتداد بـالأخذ بالحذر والحيطة في اصطفاء الأخوان والأصدقاء . ولا سيما من كان مثله غريباً نائياً عن أهله وبلاده .

الرحلة الأولى :

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات واسعة النطاق . جاب فيها أكثر ما عـرف في زمـانـه من البـلاد وذلـك في الفتـرة مـا بين (١٣٢٥ م) و (١٣٥٤ م) وكانت رحلته الأولى ما بين ١٣٢٥ م و ١٣٤٩ م .

● وفي رحلته الأولى هذه قضى ابن بطوطة أربعاً وعشرين سنة : فخرج من طنجة المغربية في سنة ١٣٢٥ م للحج . فمر بمراكش (المغرب) والجزائر وتونس وطرابلس العاصمة الليبية الآن ومصر ، ثم قصد عيذاب على البحر ماراً ببلاد الصعيد المصري ليجتاز البحر الأحمر ، فلم يتهيأ له ذلك ، للحرب التي كانت قائمة بين المماليك والبجاه . فعاد إلى الفسطاط المصرية ، ثم رحل عنها إلى فلسطين العربية ولبنان الشامية وسورية وأرض الحجاز المباركة ، فحج حجته الأولى . ومن مكة المكرمة توجه إلى بلاد العراق وإيران وتركيا (الأناضول) . ثم عاد إلى مكة مرة أخرى . فحج حجته الثانية . وأقام بها سنتين . ثم غادرها إلى اليمن الشمالية ثم الجنوبية ليعود ليجتاز البحر إلى إفريقية الشرقية . ثم عاد منها ماراً بجنوبي جزيرة العرب حتى الخليج العربي (الفارسي) . فزار عمان والبحرين والاحساء ، ثم رجع إلى مكة ، فحج حجته الثالثة ، ثم خرج من مكة إلى بلاد الهند ، فمر بخوارزم ، وخرسان وتركستان وأفغانستان وكابول والسند وتولى القضاء على دلهي الهندية على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه . ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفداً إلى ملك الصين . خرج ابن بطوطة فيه وفي عودته مر بجزيرة سرنديب (سيلان أو سيرلانكا) وجزائر الهند والصين . ومن ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة الأندلسية سنة ١٣٤٧ م ، فزار بلاد العجم (إيران) والعراق وسوريا وفلسطين ومنها إلى مكة ، فحج حجته الرابعة .

وبعد هذا رأى أن يعود إلى وطنه فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش فوصل إلى فاس المغربية سنة ١٣٤٩ م .

الرحلة الثانية :

لم يقم ابن بطوطة في فاس طويلاً حتى وجد في نفسه نزوعاً إلى السفر إلى بلاد الأندلس ، فمر في طريقه بطنجة وجبل طارق وغرناطة ثم عاد إلى فاس .

الرحلة الثالثة :

كانت رحلته الثالثة من ١٣٥٢ م إلى ١٣٥٤ م وكانت إلى بلاد السودان مبتدئة بسجلماسة هم تغازا ومالي وزاغري وكارسخو وتمبكو وتكدا وهكار ، ومن هناك رجع إلى فاس . ويعد ابن بطوطة أول سائح كتب عن مجاهل إفريقية المتوسطة .

حكاية عجائب الأسفار

اتصل ابن بطوطة بالسلطان أبي عنان من بني مرين ، أقام في حاشيته يحدث الناس بما رآه من عجائب الأسفار . وهم يستغربون ذلك . فلقي من لدن السلطان من جميل الرعاية ما حبب إليه البقاء ضمن حاشيته ، حتى مات في بلاد فاس المغربية سنة ١٣٧٧ م ولما علم السلطان بأمره وما ينقله من طرائف الأخبار عن البلاد التي زارها أمر كاتبه الأديب محمد بن جزي الكلبي أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة ، فانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦ م وسماها : (تحفة النظار ، في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار) .

ـ كان ابن بطوطة يحدث الناس بما رأى من عجيب صنع الله في خلق الحيوان والنبات وما شاهده من أخلاق الأمم وعاداتهم

وأحوالهم . مما يعد بالنسبة لهم غريباً لأنهم لم يروه أو يقعوا على مثله . فانبرى له جماعة من معانديه وحاسديه ، ممن نفسوا عليه منزلته المكرمة لدى السلطان ، يكذبونه ويسفهون رأيه ، ويعدون ما أتى به حديث خرافة وافتراء . ولكنه كان يلقى من بعض المنصفين تأييداً وإنصاتاً لما يرويه ما دام في حيز الممكن والمعقول . وما دام لم يقم على نفيه دليل من السماع أو الرؤية .

ابن خلدون يقول :

وقد نبه ابن بطوطة برحلته الأفكار وأيقظ الأذهان بعد طوال سبات ، ووجه الأنظار . لذلك كان بديهاً أن يكون الناس بين مصدق ومكذب . وقد أتى ابن خلدون ـ عالمنا الفذ ورائد علم الاجتماع ـ في مقدمته بما يكشف لنا عن حال ابن بطوطة ، **في أهل زمانه حيث يقول :**

(ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دلهي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه وكان له أعظم مكان . واستعمله في خطة القضاء (أي ولاه القضاء على المذهب المالكي) بمذهب المالكية في عمله ، ثم انقلب إلى المغرب (سافر للمغرب) واتصل بالسلطان أبي عنان . وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بممالك الأرض . وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ، ويأتي من أحواله بما يستغرب به السامعون : مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته

من الرجال والنساء والولدان ، وفرض لهم رزق ستة أشهر تعطى لهم من عطائه ، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه النـاس كافـة إلى الصحراء صحـراء البلد . ويطوفـون به . وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات ، ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخـل إيوانـه وأمثال هـذه الحكايـات . فتناجى الناس بتكذيبه) .

ـ وليس ابن خلدون أول من شك فيما قاله ابن بطوطة ، فقد أبدى كاتب الرحلة ابن جزي الشك في بعض ما نقله الرحّالة حينما قال :

(وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبـار . ولـم أتعرض للبحث عن حقيقة ذلك ولا اختباره) . !!

رجل لا يكذب [الرحالة الأمين]

● وقد عني كثير من علماء المستشرقين بمقابلة أقوال ابن بطوطة بأقوال غيره من جوابيهم في عصره أو في عصر يقرب من عصره ، فبدا لهم صدق قوله وخلوه من الغلو ، ولو ظهر لهم كذب روايتـه أوغلوه فيما نقله من الأخبار لنشروه وحرصوا على إذاعته ، وهم على ما نعلم من أهل العلم الوافـر والصدق البحثي ، وقـوة الاستنباط ، والقـدرة على تمحيص الحقائق . والتمييز بين غث القول وسمينه . وأنه لمن الصعب على **الناقد العدل أن يقول عن ابن بطوطة** : إنه كذب متعمداً فيما رواه فإن أقواله تنم على سذاجة في الطبع . والمتصف بهذا يبعد عليه أن يتعمد الكذب ، أو يحاول الغش فيما يقول : فقد كان يسوق الحكاية فإذا نسي اسم صاحبها قال : قد أنسيته وقد كانت له مندوحة

عن أن يصف نفسه بالنسيان باختراع اسم لصاحب الحكاية ، كما يفعل بعض الذين يسوقون الحكايات تسلية للسامعين . وكثيراً ما كان يصنع مثل هذا في اسماء الأماكن والبلدان .

ومن هذا نعلم أن رحالتنا العربي المسلم كان يجتهد في تحري الحقيقة ، ويشعر بأنه مأخوذ بما يقول . وحسبه أن العلّامة دوزي سماه : (الرحّالة الأمين) ابن بطوطة بين الرحالين : ونحن إذ ننصف الرجل ونقول فيه ما قلنا ، لا نقصد بهذا أن ننزله منزلة الرحالين في العصر الحاضر من العلماء والمفكرين ، الذين يخرجون زرافات ووحداناً ، لجوب البلاد ودراسة أحوالها دراسة علمية صحيحة ، قائمة على العلم وصدق الاستنباط ، ويتعرفون أخلاق الأمم وأحوالهم ، في معاشهم وطرق كسب العيش عندهم ، ومبلغ رقيهم وتقدمهم في الحضارة والعلم ، وحالتهم السياسية والاجتماعية فإن ابن بطوطة في رحلته لم يكن إلا وصّافاً لمشاهد رآها ، سره بعضها وأحزنه بعضها ، فذكرها على حالها بعبارة مقبولة ساذجة . وقد يعقب ذلك بملاحظة لا تخلو من دقة نظر . وهو بهذا قد أفاد علم الجغرافية ، وصرفه إلى ما يتعلق بالحياة العملية ، فصار سهلاً مقبولاً ، بعد أن كان صعباً مرذولاً .

أسلوب الرحلة : رأي وتعليق

إن الذي يقرأ الكتاب من أوله إلى آخره [رحلة ابن بطوطة] ، يرى أن مقدمته وكذلك خاتمته كتبت بعبارة فيها شيء من التنميق والسجع المتكلف ، وكذلك كل مقدمة لوصف مدينة عظيمة . ويغلب على الظن أن هذا كتب بقلم ابن جزي محرر الرحلة ، لأنه هو الذي تولى

تلخيص الرحلة والنظر في أبوابها وأقسامها . فيما له من سعة الوقت وانفساح المجال ، للظهور بمظهر الكاتب الأديب في حاشية السلطان ، وما يحمله على التأنق في عبارة الكتاب وتحسينها جهد المستطاع . ولا سيما إذا أضفنا إلى هذا أن ابن جزي كان يستعين في كتابة بعض الموضوعات برحلة ابن جبير وهي كثيرة التنميق والسجع .

وفي غير ما تقدم نجد عبارة كتاب رحلة ابن بطوطة سهلة لا تأنق فيها ولا تكلف ، حتى إنها لتبدو في بعض الموضوعات خالية من الترتيب والتأليف ، على نسق يقرب من إنشاء العامة .

المستشرقون وعنايتهم بابن بطوطة ورحلته

● جد كثير من المستشرقين في البحث عن نسخ الرحلة الأصلية زمناً طويلاً فعثر الرحالة (**يوركهاردت**) على مختصر لها ، فظهرت به قيمة هذا المؤلف العظيم .

● ثم جاء بعده (**كوسفارين**) فبحث حتى عثر على نسخة أخرى ، فترجم عنها إلى اللاتينية أسفار ابن بطوطة إلى إفريقيا وفارس وبلاد التتار (الصين وما يجاورها) والجزائر ونشرها سنة ١٨٨١ م .

● وفي سنة ١٨٢٩ م ترجم القس (**صموئيل لي**) قسماً كبيراً منها إلى اللغة الإنجليزية وطبعه في لندن الإنجليزية . وبعد ذلك قام العالمان الفرنسيان (**دي سلان**) ومعه (**أدوارد ديلوريه**) فترجم كل منهما قسماً من الرحلة نشر في المجلة الأسيوية سنة ١٨٤٣ م

و ١٨٤٧ م . وما زال اولئك العلماء ينقبون ويبحثون حتى عثروا على نسخ من الكتاب كاملة ، فقوبل بعضها ببعض ، وطبعت مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية في العاصمة الفرنسية باريس سنة ١٨٥٣ م - ١٨٥٩ م في مجلدات أربعة ، بتحقيق العالمين المستشرقين (دفريمري) و (سانجونتي) .

● وبعد هذا طبعت الرحلة في القاهرة طبعتين عربيتين عن الطبعة الباريسية في مجلدين ، الأولى سنة ١٨٧١ - ١٨٧٥ م ، والثانية سنة ١٩٠٤ م .

● ثم تم تحقيق الرحلة كاملة في دراسة جيدة وطبعة موثقة توثيقاً علمياً جاداً . ولرحلة ابن بطوطة طبعة في هامبورج الألمانية مترجمة عن العربية إلى الألمانية سنة ١٩١١ م ومن ١٩١٢ م طبعها المستشرق (مزيك) . وللرحلة ترجمة تركية اسمها (تقويم وقائع) . وسوف نعود لهذا الموضوع مرة أخرى بتفصيل أكثر .

قيمة الرحلة

تحوي رحلة ابن بطوطة كثيراً من طريف الأخبار ، ونادر الحكايات ، وعجائب المخلوقات ، في الحيوان والنبات ، فكان لذلك أثراً ظاهراً في تقدم علم الجغرافية ونمو الثروة الأدبية لدى المتأدبين .

وحسب الكتاب أن يشهد بفضلِه على العلم والأدب الرحالة الشهير والعالم الكبير (سيتزن) فيقول ما معناه (أي سائح أوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة في البحث

لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ؟) .

بل أي أمة أوربية كان يمكنها أن تجد من ابنائها من يجوب البلاد الأجنبية وفيه من الاستقلال بالحكم ، والقدرة على الملاحظة والدقة في الكتابة ما لهذا الرحالة العظيم ؟ إن ما جاء به من المعلومات الصحيحة عن جهات إفريقيا المجهولة لا يقل في فائدته عن معلومات (ليون) الإفريقي ، أما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار فقد استفادت من الرحلة كثيراً . وفيما كتبه عن الهند وجزيرة سرنديب من المعلومات المفيدة ما يدعو إنجليز الهند (الاحتلال الإنجليزي) إلى قراءته ، فإن فيه ما يفيدهم في سياستهم . بقي أن نشير إلى الجهد الرائع الذي بذله كل من الأستاذين الفاضلين / المرحوم أحمد العوامري المفتش الأول السابق للغة العربية بوزارة المعارف ، والأستاذ المرحوم محمد أحمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف في إخراج مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار ، في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار ، وقاما بتهذيبه وضبط غريبه .

ابن بطوطة من مقدمة رحلته

في مقدمة كتاب رحلة ابن بطوطة نقدم للقارىء استخلاصاً لما جاء فيها عن ابن بطوطة :

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ، نسبة إلى لواتة إحدى قبائل البربر ، المعروف بابن بطوطة ، والملقب بشمس الدين .

والزوايا فلم يترك زاوية إلا زارها ونزل ضيفاً عليها ، حتى إنه زار من جبل سرنديب المكان الذي يقال أن فيه أثر قدم آدم أبي البشر وهو أول من أخبر عن جماعة الهنود المعروفين بالجوكية السحرة ، وتكلم على عاداتهم وتصرفاتهم ومكاشفاتهم ، وعلى الإسماعيلية المعروفين بالفداوية وحصونهم وفتكهم ، وكذلك كان أول رحالة تغلغل في إفريقية وأعطى عنها معلومات قيمة . وقد نزل بعد رحلاته في فاس وأقام في حاشية السلطان أبي عنان من امراء بني مرين ، يحدث الناس بما رآه وما سمعه ، فأمره السلطان بأن يكتب هذه الأخبار ، ولما كان الهنود قد سلبوه في بعض جولاته في الهند كل ما كان قد دونه في مذكراته ، أملى عن ظهر فلبه ما تذكره على كاتب السلطان ، محمد بن جزي الكلبي وهذا ما يفسر لنا ما يرى في سياق رحلته من بعض هفوات جغرافية ومبالغات ، وقد سمى مجموعة أخباره (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) . ولكنها تعرف اليوم برحلة ابن بطوطة لم يكن رحالتنا عالماً ولا مفكراً ولا منشئاً بليغاً ، وإنما كان جوّاب آفاق دقيق الملاحظة ، يرغب في الاطلاع على كل شيء غريب ، وكأن عاطفته الدينية القوية أبت عليه إلا أن يصدق ، دون تمحيص ، كل ما قص عليه من كرامات ، فدونها كما أخبر بها رواتها وأصحابها ، وهكذا لم يكن يمحص ما يقص عليه من أساطير وخرافات ، كحديث النساء ذوات الثدي الواحد ، والعفاريت التي كانت تضرب جزائر ذيبة المهل فروى كل ذلك على علاته . على أنه كان أحياناً يقف موقف المشكك في صحة الرواية فيقدم لها بقوله (يزعمون) أو يتبعها بقوله : (هذا في زعمهم) تنصلاً من تبعيتها له .

كان مولده في طنجة ، فقيل له الطنجي ومكث فيها إلى أن بلغ الثانية والعشرين فاندفع بدافع التقوى ، وكان على قسط عظيم منها ، إلى الحج وانساق بحبه الأسفار إلى التجول في بلدان العالم المعروف في أيامه ، فطاف في مصر وسوريا وجزيرة العرب ، وإفريقية الشرقية وآسيا الصغرى ، وروسيا الجنوبية والهند والصين ، والأندلس والسودان ورحلاته ثلاث استغرقت كلها زهاء تسع وعشرين سنة ، أطولها السفرة الأولى التي لم يترك فيها ناحية من نواحي المغرب والمشرق إلا زارها .

وأكثر ما كانت إقامته في الهند حيث تولى القضاء سنتين ، ثم في الصين حيث تولى القضاء سنة ونصفاً فوصف كل من شاهده وعرفه فيها من سلاطين وخواتين ، وأناس رجالاً ونساءً ، ووصف ملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم وضيافتهم وترتيب مآكلهم ومشاربهم ، وما حدث في اثناء إقامته من حروب وغزوات وثورات وفتك بالسلاطين والامراء ورجال الدين . وكانت عاطفته الدينية تدفعه إلى زيارة المساجد

وأسلوبه في سرده أخباره فكه ظريف ، توخى فيه الأمانة ، حتى ولو كان الأمر متعلقاً بنفسه ، وهذا ما جعل المستشرق دوزي يلقبه : (بالرحالة الأمين) .

ومهما كان من أمر فإن قصة رحلاته من أطرف القصص وأجزلها نفعاً لما فيها من وصف للعادات والأخلاق ؛ ولما فيها من فوائد تاريخية وجغرافية ومن ضبط لأسماء الرجال والنساء والمدن والأماكن وقد اهتم بها المستشرقون في أنجلترا وفرنسا والبرتغال وألمانيا فترجموها أو ترجموا أقساماً منها إلى لغاتهم وطبعوها وقسمها ابن

جـزي إلى كتابين وقف الأول منهما عند وصـول صاحبهـا إلى نهـر السند ، وأنهى الكتاب الثاني بنهاية الرحلة الثالثة .

محاولة للتهذيب

ـ يقـول الأستاذان محمـد أحمـد جـاد المـولى والأستـاذ أحمـد العـوامري في التقـويم لمهذب رحلة ابن بـطوطـة لمـا كلفتنـا وزارة المعارف تهذيب رحلة ابن بطوطة ، ليقرأها طلبة المدارس الثانوية ، وجدنا أنفسنا أمام عمل خطير لما يقتضيه من بحث وتنقيب ومراجعة ، لكثـرة ما وقـع في النسخ المـطبوعـة في مصـر من تحـريف وتغيير وتبـديـل ، ممـا اجتـرحـه جهلة النسـاخ في خـلال تلك الأحقـاب المتطاولة .

● ولقد كنا نطالع بعض الفقر فلا نجد لها معنى يساغ ، فنتلمس ما قد يقع بأيدينا من مختلف الطبعات ، علنا نصيب جادة الصواب . ولكنا كثيراً ما كنا نخـطئها ، فنفضـل أن نمحو تلك الفقـر ، ضنانـة بوقت القارىء أن يذهب في غير جدوى ، كما محونا مـا أسهب فيه المؤلف مما يمل المطالع ويضجره .

ـ ولا نكتم القـارىء أن ابن بطوطـة [أو محـرر الـرحلة] لم يكن ليتحرز أحياناً من أن يجمح قلمـه بألفـاظ وعبارات يـأباهـا الحياء . فعمدنا إلى مثل هذا فمحوناه ، توقياً وتحـرزاً ، وتنزيهـاً للقارىء أن يقع بصره أو يطرق سمعه ما يستحيا منه(*) .

(*) لأن التهذيب تقرر له أن يقرأه طلاب من الشباب اليـافع فـلا مانـع من حذف =

ولم نبـال أيضاً أن نغيـر بعض العبارات والألفـاظ ونهذبهـا طبقـاً لأصـول اللغة لمـا ذكـرنـا آنفـاً من عبث النسـاخ وتحـريفهم الكلم (الكلام) عن مواضعه .

على أن لابن بطوطة (أو محرر الرحلة) نفسه تعبيرات غـريبة ، وأساليب قد تخالف ما نعهده للفصحاء وائمة القول ، فما وجدنـا له منها مسوغاً أبقيناه ، وإلا أصلحناه ، أو استبدلنا به مرادفاً ، أو شرحنا مراده منه في الحاشية ، إن لم يكن عنه منتدح . ورجل حِلفْ أسفار وجوّاب آفاق كابن بطوطة ، لم يكن لديه من الوقت ما يتسع للتحري والتـأنق في العبارة : وإنمـا كانت تقييـدات عـاجلة ، وملحـوظـات خاطفة ، لخصها فيما بعد ابن جزي كاتب السلطان كما يرى قارىء الرحلة في مفتتح الكتاب وخاتمته .

وله أيضاً أساليب وألوان مختلفة من التعبير ، وضروب متغايرة من الانشـاء : فمن الجزل الـرائق العذب ، إلى المضـطرب المعقد . وبينما تجده آونة يعنى بالتافه من الشيء يصفه ويطنب في وصفه ، إذ هـو صامت أمـام مـا تشتـاق فيـه النفس الشـرح الشـافي والإيضـاح المستوعب : ذلك بأنه كان يعتلج في نفسه إذ يكتب من نوازع اليأس والـرجـاء ، والخـوف والأمن ، والحـزن والجـذل ، مـا نلمسـه في تضاعيف الكتاب جميعاً .

وبعد : فإن قارىء الرحلة يجد في هذه (الرحلة) متعة لنفسه ،

= العبارات أو الألفاظ الخادشة للحياء ولكن أن يفعل ذلك في طبعه للنص كله فهذا غير مقبول لأن الأمانة العلمية تحتم عدم بتر النص .

ونزهة لخاطره ، وأنساً لوحدته ، وشحذاً لقريحته ، لما فيها من فنون الوصف البديع لحوادث وبلاد وأصقاع ، ونبات وحيوان ومعادن ، وهياكل وقصور ومصانع وملوك ورجال ، وأخلاق وعادات ، وحضارات بذخت ثم اندكت ، ومدنيات بزغت ثم أفلت .

وسيعلم القارىء أيضاً بمسايرته لهذا الرحالة في جولانه واضطرابه ، أنه دقيق الملاحظة ، نافذ البصر ، مر النقد ، كلف بدراسة الطبائع الإنسانية حريص على أن يودع كتابه من تجاربه وملاحظاته كل مفيد نافع . فهو بحق إمام علماء تقويم البلدان السابقين الأولين الذين ساروا في الأرض فنظروا واخترقوا الآفاق فكشفوا .

ويقول الأستاذان المُهَذِبان : ثم إنا تركنا للرجل جل آرائه وعقائده ، وإن كان بعضها من الخرافة والسخف بمكان ، حرصاً منا على أن يبرز للقارىء على حقيقته ، وإبقاءً على عصر وبيئة من الحق أن يمثلا للعيان غير منقوصين .

ويضيفا : قد عنينا أن نشرح في الحاشية ما قد يعتاص على القارىء . ولم نكن في ذلك بمستوعبين ، بل تركنا للقارىء المثقف إكمال النقص ، وشرح الموجز ، ولو أن الوقت انفسح أمامنا لحققنا في هذه السبيل ما نبتغيه من كمال .

ولم نألُ جهداً أن نراجع المصادر الموثوق بها لضبط اسماء الرجال أو الأمكنة ، أو غير ذلك مما يتعرض المؤلف لضبطه . وانتفعنا في هذا الباب وغيره من وجوه التمحيص والتحقيق بالنسخة المطبوعة في

باريس سنة ١٨٥٨ م مع ترجمتها الفرنسية ، للمستشرقين س . د فرمري والدكتور ب . ر سانجونتي فقد بذل هذان الفاضلان في تحري الصحة في طبع الأصل العربي ما ليس وراءه غاية لمستزيد ، وإن كان لا يخلو من هفوات وزلات . وجاءت الترجمة الفرنسية ، فأوضحت ما خفي ، وأبانت ما استغلق . وهكذا يفعل هؤلاء المستشرقين فيما يتناولون من آثار العرب بالدراسة . فهناك التحقيق والتدقيق والعلم الغزير[1] .

---

(١) جهد مشكور من الأستاذين الفاضلين : جاد المولى والعوامري ولكن ليس كل أعمال أهل الاستشراق فيها التحقيق والتدقيق والعلم الغزير ، كما يذكران ، فالسم أحياناً نجده في عسلهم وهذا ليس بخفي على أهل الفطنة والدراية .

ويجدر بالذكر أن (مهذب رحلة ابن بطوطة) أصدرته وزارة المعارف العمومية المصرية في عام ١٩٣٣ م .

بين (ابن بطوطة) و (ماركو بولو) الإيطالي

هذا هو ابن بطوطة المشهور هو نفس ذلـك الرحّـالة الـذي كانت أسفاره تطالعنا دوماً بالمدارس الثانوية في البلاد العربية إلى عهد غير بعيد .

هـو ذلك الـرجل الـذي يرد المثقفـون العرب حين التسـاؤل عنه بابتسامة لها مغزاها فلا تخلو من بعض الاستخفاف .

وهو نفسه الرحالة الذي لا يستغني عن الرجوع إليه أي باحث يود الخوض في تاريخ الهند وآسيا الوسطى وإفريقيا القديمة والذي رغماً من هذا تقف رواياته عن الهند والصين في مستوى واحد مع (أسفار السندباد) وعجائب الهند العظيمة . ومهما اختلفت الآراء حول هذا الرجل فمن المستحيل إنكار أنه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العمليـة ، أي أنه لم يكن مجـرد نقّالـة اعتمد على كتب غيـره دون تمحيص ، بل كان رحّالة فعلي انتظم محيط أسفاره عـدداً كبيراً من الأقطار .

لقد جاوز تجول ابن بطوطة مائة وخمس وسبعين ألف ميل فهو بهذا يعد منافساً خطيراً لمعاصره الأكبر منه سناً (مـاركو بـولو) الإيـطالي البندقي . ولعل المقارنة بين الإثنين قد بولغ فيها أحيـاناً ولـو أنها لا تخلو في بعض الدراسات من طرافة ظاهرة أحياناً فـالصياغـة الأدبية

لكلا الرجلين مثلاً لا ترجع إلى صاحب الرحلة (ابن بطوطة) أو (بولو) بل إلى شخص آخر تولى ذلك ، كما أن كلا المصنفين يكمل أحدهما الآخر بالنسبة لمعلوماتنا عن قارة آسيا ككل .

فماركو بولو الإيطالي عرف الشرق الأقصى جيداً خير مما عرفه ابن بطوطة المغربي وفي مقابل ذلك فمن الطبيعي أن تجد ابن بطوطة لديه إحساس ذاتي بظروف حضارة العالم الذي يصفه أكثر مما كان للرحالة الإيطالي وربما يقرب بين الرجلين أنهما لا ينتميان في المحيط الجغرافي إلى الجغرافيين العلماء ولو أنه يجب الاعتراف بأن وصف المواطن المسلم لخط سير رحلته أدعى إلى الثقة مما عليه الحال مع معاصره باعتراف أهل الاستشراق جميعهم .

شطحات ورجل لا نعرف طفولته

إلا أن هذا يجب ألا ينسينا بعض شطحات ابن بطوطة المغربي ، فمما لا شك فيه أن وصفه (لأرض الظلمات) الواقعة خلف أراضي بلغار الفلجا أي الواقعة على نهر الفولجا الروسي إنما يرجع فيه إلى فكرة غير موثوق بها أو إلى مصدر أدبي أساء فهم روايته كما أن وصفه لبلاد (طوالسي) الواقعة في مكان ما من كوشين الصين يضم أساطير سمعها عن بلاد أخرى حتى اختلط الوصف لديه اختلاطاً كلياً . إلا أنه كلما تعرضت الأجزاء المختلفة من وصف رحلته لدراسة دقيقة مفصلة كلما زادت الثقة في صدق روايته يوماً عن آخر إنه رجلنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي . وتشير النسبة الأخيرة إلى علاقته بطنجة التي رأى النور فيها لأول مرة في الرابع والعشرين

من فبراير ١٣٠٤ م ـ ٧٠٣ هـ ، أما النسبة السابقة لهـا فتشير إلى أن أصله من قبيلة لواتة البربرية التي انتشرت بطونها على ساحل القـارة الإفريقية حتى سواحل مصر . ولكنه في الواقع عربي النشأة والفكـر والثقافة .

وبالبربر من المسلمين أيضاً يـرتبط اسم أسرتـه (بطّوطـة) الذي أثبت صحة نطقه تشديد الطاء بصفة قاطعة المستشرق (فيشـر) في عام ١٩١٨ م ولو أن هذا لم يجد طريقه إلى الدوائر العلمية إلا بصورة بطيئة .

ولا علم تفصيلي لنا بسني حياته الأولى ولا بسيرة حياته بوجه عام بخلاف ما ذكر هو عرضاً في سياق رحلته ، ويبدو أنه قد حصل على ما تيسر من العلم بمسقط رأسه مع ميل واضح إلى الفقه وفقاً للمذهب المالكي والسائد في شمال إفـريقيا ، ولا شـك أنه قـد تمتع ببعض المعرفة في هذا المجال ، فقد حدث لـه أن شغل في خـلال رحلته الطويلة منصب القضاء وهو في ريعان شبابه غير أنه لا يخلو من غرابة أنه لم يخلف وراءه أي نتاج أدبي ، إذ لم يرد في كتاب الرحلة أو في المصادر الأخرى ذكر مؤلفات أدبية منسوبة إلى ابن بطوطة .

وكان لابن بطوطة كغيره من المثقفين شعر جيد (كلاسيكي) وكان يحب رفع قصائده إلى من شملوه برعايتهم أي أنه كان يمدحهم مدحاً تقليدياً . ومن المؤكد أن الحافـز لخروج ابن بـطوطة المغـربي إلى رحلته وتجواله هو ذلك الحافز الذي لعب الدور الكبير في إنجازات الرحالة ، وعلماء الجغرافية العـرب وكذلـك علماء الفلك والتـاريخ وأعني الرغبة في اداء فريضة الحج . وهو يروي ذلك بقوله : (قال

الشيخ أبو عبد الله : كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد ، عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، قاصداً حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، منفرداً عن رفيق أنس بصحبته ، وركب أكون في جملته ، لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم (جمع حيزوم : الصدور) فجزمت (فعزمت) أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور ، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكر ، وكان والديَّ بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصباً (مرضاً) ولقيت كما لقيا من الفراق نصاب وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة) .

وأعتقد أن ابن بطوطة كان ينوي أداء فريضة الحج فحسب ولم يدر بخلده أن عصا الترحال ستلقي به في مختلف بلاد المعمورة ، فلم يكتب له العودة إلى وطنه الأم إلا بعد أكثر من ربع قرن .

وخط سير رحلة ابن بطوطة معروف لنا منذ اللحظة الأولى لتركه وطنه إلا أنه ليس من النادر أن ينقطع خيط الرواية أو يضطرب سياق العرض ، وهو على أية حال يسوقنا إلى لحظة عودته إلى وطنه الأم .

ولعل الإطار الجاف الذي يحتوي قصة الرحلة يصف بصورة أبلغ من أي شيء آخر المدى الواسع الذي بلغه تجوال ابن بطوطة فقد بدأ تحركه من طنجة ماراً في طريقه بـ (تلمسان ـ مليانة ـ الجزائر ـ بجاية ـ قسنطنية ـ بونة ـ تونس ـ سوسة ـ سفاقس ـ قابس ـ طرابلس ـ الغرب ـ لبدة ـ مسارطة ـ سرت) حتى بلغ مدينة الإسكندرية المصرية .

من عيذاب إلى الشام

ولما وصل إلى صحراء عيذاب وجد (الحدربي) سُلطان البجاة يحارب المماليك وليس الأتراك كما قال ، وقد خرق المراكب وهرب المماليك أمامه ، فتعذر سفره في البحر ، فباع ما كان أعده من الزاد ، وعاد مع العرب الذين اكتروا معه الجمال إلى صعيد مصر ، فوصل إلى مدينة قوص وانحدر منها في النيل ، فبات بمصر ليلة واحدة ، وقصد بلاد الشام وكان ذلك في منتصف شهر شعبان سنة ٥٢٦ هـ ، فوصل إلى مدينة بلبيس ، ثم إلى الصالحية ، ثم سيناء وغزة إلى بلاد الشام .

نعود لنقول : أن ابن بطوطة غادر الإسكندرية إلى دمياط فركب نهر النيل إلى القاهرة التي كانت آنذاك تمر على فترة من الازدهار أيام عصر المماليك وإن لم تخلو من شوائب ومنغصات يعرفها كل من يتصدى لدراسة العصر المملوكي بفتراته المختلفة .

هذه الفترة أحدثت في نفسه أثراً يماثل الأثر الذي أحدثته في وقتها مصر الفاطمية على (ناصرو خسرو) ولا ننسى له ما سجله عن هذه الفترة المضطربة سياسياً وفكرياً . والمعروف أن (ناصرو خسرو) زار مصر سنة ٤٣٩ هـ فرأى حوانيت الصاغة مكتظة بما فيها من جواهر ثمينة ، ورأى محلات تغيير العملة وبها كميات كبيرة من العملات المتعددة ، وهذه المحلات وتلك كثيراً ما كانت تترك مفتوحة ويدعها أصحابها ويذهبون للصلاة أو لأمر من الأمور ، فقد كان الأمن منتشراً ، والرخاء شاملاً ، فلم يكن بالناس حاجة إلى السرقة أو الخطف .

وما زلنا نذكر وصف خسرو لثراء الخليفة الفاطمي ونسجله ضمن أحاديثنا عن الدولة الفاطمية .

إذن فكرة زيارته للشام واتته بعد عودته للقاهرة بعد أن تعذر عليه أن يقل إحدى السفن إلى جدة من ميناء عيذاب على البحر الأحمر حيث الحرب مشتعلة بين قبائل الباجة المتمردة والمماليك ، وأتته فكرة زيارة الشام كي ينضم إلى قافلة الحجاج من دمشق السورية ، واغتنم هذه الفرصة فزار في طريقه فلسطين العربية ليصف لنا المسجد الأقصى وبيت المقدس الشريف ، وقبة الصخرة المباركة ، وبعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف ، وذكر بعض فضلاء القدس ، ثم وصف مدينة طرابلس اللبنانية ، ومدينة حلب ، وصف دمشق العاصمة السورية ، وذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية ، وذكر المدرسين والمعلمين به ، وذكر مدارس دمشق وأبوابها ومشاهدها ومزاراتها ، وذكر أرياض دمشق وقاسيون ومشاهده المباركة ، وذكر الربوة والقرى التي تواليها ، ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعاداتهم ، وذكر سماعه بدمشق وإجازة علماء دمشق له .

إلى عرفات الله

بعد دمشق انضم إلى قافلة الحجاج ليزور تبوك ، ويثرب مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ومسجده وروضته العطرة ، ذاكراً ابتداء بناء المسجد النبوي الشريف ، وذكر المنبر الكريم ، والخطيب والإمام بمسجد الرسول ﷺ ، وذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به ، وذكر أمير المدينة الشريفة ، وذكر بعض المشاهد

الكريمة بخارج المدينة الشريفة واصفاً الطريق إلى مكة المكـرمة ، ذاكـراً وصفاً مسهبـاً للكعبة المعـظمة والمسجـد الحرام شـرّفـه الله وكرمه ، وذكر الميزاب المبارك والحجر الأسعد ، والمقام الكريم ، والحجر والمطاف وزمزم المباركة ، وأبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة ، وذكر الصفا والمروة ، والجبانة المباركة ، وبعض المشاهد خارج مكة ، والجبال المطيقة بمكة ، وذكر أميري مكـة وأهلها وفضـائلهم ، وعادتهم في الخـطبة وصـلاة الجمعـة ، وعادتهم في شهر رجب وعمرة رجب ، وعادتهم في ليلة النصف من شعبان ، وعادتهم في شهر رمضان المعظم ، وعادتهم في شـوال ، وذكر إحرام الكعبة ، وشعائر الحج وأعماله ، وكسوة الكعبة ، وذكر الانفصال عن مكة شرفها الله ، والروضة والقبور التي بها .

وأعقب زيارته للأراضي المقدسة بزيارة للعراق ليزور هناك مشاهد الشيعـة ، وقبر الإمـام علي كرّم الله وجهـه بالنجف الأشـرف ثم مـر بالبصرة العراقية وقبلها واسط ، وزار المشاهـد المباركـة في البصرة قبل أن يستكمل طريقه إلى فارس زار شيراز ثم الموصل العراقية وهو يحدثنا عن مدينة تستـر وملك إيذج وتستـر ، ويروي لنـا حكايـة في سبب تعظيمه لقاضي شيراز ، وذكر سلطان شيراز ، وبعض المشاهد بشيراز . ومدينة الكوفة ، ومدينـة بغداد العـاصمة العـراقية ، وذكـر الجانب الغربي من بغداد ، ثم الجانب الشرقي منها ، وقبـور بعض الخلفـاء ببغـداد ، وتـرتيب ملك العـراق في رحيله ، والعــودة إلى بغداد ، ثم مدينة الموصل ، وسلطان الماردين والرجوع إلى بغداد .

وواضح أن العام قد انصرم مما يسر عليه تأدية فريضة الحج للمرة

الثانية وأقام بمكة المكرمة من عام ٧٢٩ هـ إلى ٧٣٠ هـ (من نهاية عام ١٣٢٨ م) حتى عوفي من وعكته الصحية التي ألمت به ، وتعرف خلال تلك الفترة على عدد من العلماء ورجال التصوف المقيمين بمكة . ولم يلبث أن ترك مكة إلى جدة ومنها عبر البحر الأحمر إلى الساحل الشرقي لإفريقية ثم رجع منه إلى اليمن ثم عاد مرة ثانية إلى إفريقية التي غادرها إلى الساحل الشرقي لبلاد العرب على الخليج الفارسي ، وقد مر في طريقه على سلطنة عمان وهرمز والبحرين . وزار مكة المكرمة للمرة الثالثة فمر في طريقه إليها على اليمامة ثم اجتاز البحر الأحمر إلى ميناء عيذاب ومنها إلى القاهرة .

الدورة الثانية

أما الدورة الثانية فقد اجتاز فيها بلاد الشام كلها حتى دخل بلاد آسيا الصغرى (بلاد الأناضول والبلاد المطلة على البحر الأسود) وفيما يتعلق بهذه البلاد الأخيرة فإن خط سير ابن بطوطة يعتوره خلط شديد ، فقد اجتاز آسيا الصغرى حتى وصل إلى (سينوب) على البحر الأسود ثم عبر البحر الأسود فنزل إلى شبه جزيرة القرم عند ميناء (كفا) وهي في الاتحاد السوفياتي حالياً ، وكانت إذ ذاك من المستعمرات الجنوبية بالبحر الأسود ، وفيها ولأول مرة سمع رحالتنا ابن بطوطة نواقيس الكنائس تدق .

أما ميناء شبه جزيرة القرم الرئيسي فيسمى (صوادق) ويعتبره ابن بطوطة أحد المرافىء العالمية الخمسة الكبرى : مرسى كولم ، ومرسى قاليقوط ببلاد الهند ، ومرسى الكفار بصوادق أو سوادق ببلاد الأتراك (القرم) ، ومرسى الزيتون ببلاد الصين وتعرف هذه المدينة

الآن باسم (تشيون) ، ومرسى الإسكندرية العظيم الشأن على حد وصف ابن بطوطة .

وفي طريقه مر ابن بطوطة على سلخات (القرم القديمـة) فجال في أنحاء القرم وروسيا الجنوبية . ومن هنا بلغ بلغار الڤولجا ثم خرج من استرخان (حاجي طرخان) مع قـافلة أميرة بيـزنطيـة هي إحدى زوجات الخان أوزبك فبلغ مدينة القسطنـطينـة ومن هناك رجـع إلى مملكة الأوردو الذهبي فوصل إلى مقر الخان بمدينة سراي على نهر إيل ، ثم عبر نهر الڤولچا ليصل إلى چينوة وتركها إلى بخارى ثم إلى أفغانستان ، ودخل الهند الأسيوية في غرة المحرم من عـام ٧٣٤ هـ الموافق الثاني عشر من سبتمبر ١٣٣٣ هـ .

في دلهي البداية

منذ هذه اللحظة خطا ابن بطوطة مؤرخنا المسلم إلى الجزء الثاني من وصف رحلته الشهيرة ، ففي دلهي حظا الرجل بدرجة عالية جداً من النقود لدى السلطان محمد بن طغلق الذي عينه في منصب قاضي القضاة لمدة خمس سنوات ؟!

وفي تلك الآونة جهز السلطان الهندي مجموعة من الرجال ليكونوا سفارة إلى الصين كان من أعضائها ابن بطوطة ، وكان ابن بطوطة يود الوصول إلى الصين براً عن طريق قندهار فأبحر من قليقون إلى جزر الملديف (جزائر ذيبة المهل أو ذئبة المهل) القـريبة من شبـه القارة الهندية وهناك أمضى حوالي عامين شغل خلالهما مرة أخرى منصب القضـاء وزار سيـلان والبنغـال (بنجـالـة) وبـلاد الهنـد الشمـاليـة

وأندونيسيا ومن هناك اتجه إلى مدينة كانتون بالصين وفي طريق العودة يأخذ سفينة من سومطرة الأندونيسية إلى ظفار الواقعة جنوب شبه الجزيرة العربية ليصلها في عام ٧٤٨ هـ ـ ١٣٤٧ م ومرة أخرى نراه ضارباً في فيافي إيران والعراق وبلاد الشام ومصر . ثم أدى فريضة الحج للمرة الرابعة .

وبعد ذلك ذهب إلى فلسطين العربية وشهد بها الوباء المخيف الذي اجتاحها عام ٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٨ م واعتقد أنه وباء الطاعون .

عودة وعودة

عقب ذلك بقليل وفي إبريل من عام ٧٥٠ هـ ـ ١٣٤٩ م ألحت على ابن بطوطة رغبة جامحة في الرجوع إلى وطنه الأم ، ولعل تواتي الأخبار بازدهار مراكش في عهد السلطان أبي عنان من بني مرين قد مكن من هذه الرغبة في نفسه فأخذ طريق العودة ماراً على مصر وتونس وفي اثناء هذه الرحلة واتته فكرة زيارة جزيرة سردينيا (سردانية) وخلال ذلك تعرض مرتين لهجوم قراصنة البحر ، وعلى الرغم من ذلك فقد حالفه التوفيق فتقدم في طريقه إلى فاس المغربية ماراً على تنس وتلمسان وتازا ، التي علم فيها بوفاة أمه .

بلغ ابن بطوطة بلاط السلطان أبي عنان في نوفمبر من عام ٧٥٠ هـ ـ ١٣٤٩ م وهناك انتهى به المطاف وقوبل بما هو أهل له من التقدير والإجلال ، بيد أن تجوال الرجل لم يقف عند هذا الحد من الترحال فقد بقي قطران إسلاميان لم يكن قد زارهما بعد إحداهما : دولة غرناطة التي لم تستغرق زيارته لها وقتاً طويلاً . وفي طريقه إليها

زار قبر أمه بطنجة المغربية ، ثم عبر مضيق جبل طارق إلى رندة ثم مالقة وأقام بها مدة أطول بعض الشيء من مدة إقامته بغرناطة ، ومن المحتمل أن يكون ابن بطوطة قد عاد مرة ثانية إلى غرناطة وأقام بها مدة أطول من فترة إقامته الأولى ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد تعرف على محمد بن محمد بن جزي الكلبي كاتب أبي عنان ـ أحد أمراء بني مرين الذين حكموا مراكش بعد أن طردوا أمراء الموحدين من سنة ١٣٦٩ ـ ١٥٥١ م ـ في هذه الأثناء .

محمد بن جزي هو ذلك الرجل الذي كتبت له الأقدار أن يدون أخبار ابن بطوطة ثم رجع ابن بطوطة مرة أخرى إلى فاس المغربية عابراً مضيق جبل طارق للمرة الثانية غير أنه لم يلبث أن خرج في غرة المحرم من عام ٧٥٣ هـ ـ ١٨ فبراير ١٣٥٢ م في رحلة أطول من تلك بكثير .

إلى مجاهل إفريقية

إذا كانت رحلة ابن بطوطة الأولى كانت في الفترة ما بين ١٣٢٥ ـ ١٣٤٩ م (٢٤ عاماً) ورحلته الثانية من ١٣٤٩ إلى ١٣٥٢ (٣ سنوات) فإن رحلته الثالثة أو الرحلة الإفريقية كانت ما بين ١٣٥٢ إلى ١٣٥٤ (عامان فقط) .

الرحلة الإفريقية كلفه بها السلطان أبو عنان المريني ، وكان وجهتها أعماق القارة السمراء .

وقد ظل وصف هذه الرحلة الإفريقية لابن بطوطة لا يفضله شيء إلى عهد الرحلات الأوربية في القرن التاسع عشر .

مر ابن بطوطة بسجلماسة في طريقه إلى تمبكتو بمملكة مالي القوية التي لم يكن قد مر على اعتناقها الإسلام عهد طويل .

وفي طريق العودة وبعد أن زار مناجم معدن النحاس بتكدا بدأ في ١٢ سبتمبر ٧٥٤ هـ ـ ١٣٥٣ م رحلة شاقة استغرقت بضعة أشهر في صحبة قافلة من تجار الرقيق اخترق خلالها هضبة (هكار) بعد أن مر في طريقه على واحة أغدس ثم عبر جبال أطلس المغربية شتاءً في ظروف قاسية من الشظف الشديد إلى أن بلغ فاس المغربية في نهاية عام ٧٥٤ هـ ـ ١٣٥٣ م بعد أن جال في : دنقلة ، كركر ، مالي ، كارسخو ، كابرة ، أيوالاتن ، تنبكتو ، بودا ، توات ، غات ، زاغري ، تكدا ، هكار .

وفي فاس المغربية أمضى ابن بطوطة البقية الباقية من حياته وهي نيفاً وعشرين عاماً لم يقم خلالها بأي تجوال يذكر حتى وافته منيته في ٧٧٩ هـ عن عمر اقترب من ٧٦ سنة .

عن المريتيين نقول :

كان عهد الأسرة المريتية خاصة في عهد حكم أبي الحسين الذي امتد من ٧٣١ هـ إلى ٧٤٩ هـ وأبي عنان (٧٤٩ هـ ـ ٧٥٩ هـ) عهداً ازدهرت فيه الثقافة في جميع أنحاء المغرب الإسلامي ، وقد عد بنو مرين أنفسهم ورثة الحضارة الأندلسية الشرعيين على الرغم من أن الدولة العربية بالأندلس كانت لا تزال على قيد الحياة ولو أن رقعتها كانت قد تقلصت بشكل ملحوظ ، لذا فقد اهتم بنو مرين بتشجيع الأدب والأدباء كأسلافهم غرب الأندلس . وقد حفظت لنا

الآثار المعمارية لعصرهم نماذج فنية عظيمة كما اجتذب بلاطهم عدداً كبيراً من الأسماء اللامعة في مجالي الأدب والعلم فعاش في كنفهم ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربية الإسلامية وفيلسوفها ، ولسان الدين بن الخطيب الشاعر ، الناثر ، السياسي الوزير ، وكلاهما كان معاصراً لابن بطوطة ويبدو أنه كان للسلطان أبي عنان الفضل في ظهور رحلات ابن بطوطة منشورة في كتاب ، فهو الذي عثر له على (محرر أدبي) إن صح هذا القول .

نعود فنقول : إن القرائن تشير إلى أن رحالتنا ابن بطوطة كان مولعاً بالقصص والحكايات وبالذات الخيالي منها أو غير الواقعي ونظرة واحدة نلقيها على بعض ما حكاه الرجل في رحلاته نحس بذلك عن قناعة رغم ذلك فإنه لم يحس انجذاباً شديداً نحو فن الكتابة الأدبية بوجه عام . أما كيف خرجت فكرة الكتاب إلى حيز الوجود فيتضح ذلك جلياً من ألفاظ المحرر ، فهو في كلامه عن ازدهار فاس في عهد السلطان أبي عنان يقول :

« وكان ممن وفد على بابها السامي ، وتعدى أوشال البلاد إلى بحرها الطامي ، الشيخ الفقيه السائح ، الثقة ، الصدوق ، جوّاب الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض ، أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين، وهو الذي طاف الأرض معتبراً ، وطوى الأمصار مختبراً ، وباحث فرق الأمم ، وسبر ستر العرب والعجم ، ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا ، لما علم أنّ لها مزيّة الفضل دون شرط ولا ثُنيا (استثناء) ، وطوى

المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب ، وآثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب ، اختباراً بعد طول اختبار البلاد والخلق ، ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق ، فغمره من إحسانه الجزيل ، وامتنانه الحفي (المبالغ فيه) الحفيل (الكثير) ، وما أنساه الماضي بالحال ، وأغناه عن طول الترحال ، وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه ، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه ، فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد ، وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد » .

ويقول المحرر الأدبي لرحلات ابن بطوطة إن الإشارة الكريمة نفذت بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار ، وعلمائها الأخيار ، وأوليائها الأبرار ، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلائها ، وعجيبة أطرق بانتحائها .

ويصدر الأمر العالي لعبد مقامهم ، الكريم عليهم ، المنقطع إلى بابهم ، المتشرف بخدمة جنابهم ، محمد بن محمد بن جزي الكلبي ، أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه (ألهمه) شكر نعمتهم - أن يضم أطراف ما أملاه (الشيخ أبو عبد الله) من ذلك ، في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ، ولنيل مقاصده مكملاً ، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمداً إيضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف ، فامتثل ما أمر به مبادراً ، وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادراً .

ويقول الجزي : إنه نقل معـاني كلام ابن بـطوطة بـألفاظ مـوفية للمقاصد التي قصدها ، مـوضحة للمنـاحي التي اعتمدهـا ، وربما أوردت لفـظة على وضعه ، فلم أخـل بأصله ولا فـرعـه ، وأوردت جميـع ما أورده من الحكـايات والأخبـار ، ولم يتعـرض لبحث عن حقيقـة ذلك ولا اختيـار ؛ على أنه سلك في إسنـاد صحاحهـا أقوم المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعـر من الألفاظ بـذلك ، وقيد المشكل من اسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع في التصحيح والضبط .

وشـرح ما أمكنـه شـرحـه من الأسمـاء العجميـة ، لأنهـا تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطىء في فك معماها معهود القياس .

ويـرجو الجـزي أن يقع مـا قصده من المقـام العلي (أيـده الله) بمحل القبول ، وأبلغ من الإغضاء عن تقصيره المأمول ؛ فعوائدهم في السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة .

وكعادة كتاب عصر ابن جزي يدعو لبني مرين بأن يديم الله عليهم عادة النصر والتمكين ، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين .

ثم يبدأ ابن جزي رحلة ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه يوم الثاني من شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ .

عن المحرر الأدبي للرحلة مرة أخرى ! !

من الجزء السابق يتضح لنا أن وصف رحلة ابن بـطوطة المسمـاة (تحفة النظار ، في غرائب الأمصار ، وعجـائب الأسفار) ليس من تصنيف ابن بطوطة نفسه ، فالمادة مادة ابن بطوطة ، والرواية روايته

ولكن الصياغة الأدبية الفعلية للرواية عملها الكاتب المغربي ابن جزي ، ولا يزال نص هذه الصياغة موجوداً بالمكتبة الأهلية في باريس العاصمة الفرنسية ، قسم كبير من الكتاب بخط ابن جزي نفسه .

ويمكن الحكم على الطابع العام للكتاب المتضمن لرحلة ابن بطوطة من ألفاظ ابن جزي نفسه والتي يسهل علينا مراجعتها في أي نسخة من نسخ رحلة ابن بطوطة ، ذلك يسهل لنا تحليل شخصية ابن جزي كأديب ، فهو على ما يبدو لنا من أدباء عصر التدهور الأدبي الذي ساد العالم الإسلامي في تلك الآونة .

وبالبحث عن الرجل وإنتاجه الأدبي لا نجد إلا سيرة لحياته ومصنف في نسب النبي ﷺ .

نعرف أن ابن جزي ولد بغرناطة الأندلسية وشغل منصب الكاتب لدى السلطان أبي الحجاج يوسف من بني نصر (٧٣٣ هـ ـ ٧٥٥ هـ ـ ١٣٣٣ ـ ١٣٥٤) ثم لم يلبث أن اختلف معه فرحل عنه ليشغل نفس المنصب في بلاد السلطان أبي عنان الذي عرف كيف يجتذبه إلى شخصه وأتم ابن جزي عمله في ثلاثة أشهر فقد انتهى من (تقييد) ألفاظ ابن بطوطة في ديسمبر من عام ٧٥٦ هـ ـ ١٣٥٥ م وفي فبراير من العام التالي كان قد أكمل ابن جزي صياغتها ولم يعش طويلاً بعد هذا فقد قابل باريه في نفس العام . وعلينا أن نأخذ دائماً في اعتبارنا جميع الظروف التي تم فيها تدوين الرحلة بحيث إننا إذا ما قسونا في حكمنا على ابن بطوطة فيجب ألا ننسى أن كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزي نفسه .

ويمس هذا قبل كل شيء الإطار العام للكتاب الذي هو من وضع ابن جزي فهو يفتقر في كثير من الأحيان إلى التناسب والتناسق ، ويمكن من خلال الشذور التي ذكرناها أن نحكم على الأسلوب المتكلف الذي لجأ إليه ابن جزي وميله الواضح إلى السجع والإطناب وهي على أية حال من سمات عصر التدهور الأدبي .

ومن حسن الحظ أن أسلوب الكتاب لا يسير في جميع صفحاته على وتيرة واحدة إذ كثيراً ما تتخلل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة التي تميل أحياناً نحو لغة المحادثة محتفظة في ذات الوقت برزانتها وغناها وإلى جانبها يبدو أسلوب ابن جزي ثقيلاً يغلب عليه الحشو والتكلف كما تنعكس فيه على الدوام محاولة واضحة إلى جميع قصص ابن بطوطة المتفرقة في وحدة متماسكة وتزويقها بصورة تجعلها أقرب إلى النصوص الأدبية وهو يقتطف من أشعار مختلف الشعراء ، أحياناً دون مناسبة تستوجب ذلك وبلا أدنى صلة تربطها بموضوع كلامه ، وغرضه من هذا أن يكسب كلام ابن بطوطة حيوية أكثر ، وأغلب الظن أن ابن جزي قد لجأ إلى الطريقة القديمة في تضمين الأوصاف المأخوذة من المؤلفين السابقين في سياق عرضه دون أن يهتم بالإشارة إلى اسمائهم ، ومن الإجحاف اتهام ابن بطوطة بادعاء المعرفة والعلم بالكتب فهو رجل يحب القصص ولكنه يفضل حكايتها بألفاظه هو ومن المشكوك فيه أن يكون هو المسئول عن تضمين قطع كبيرة من كلام ابن جبير في وصف بلاد الشام وبلاد جزيرة العرب وغيره من الرحالة العرب المسلمين دون أن يشير إلى المؤلف أو الكاتب .

وأعتقد أن ذلك الأمر غير مقلق أو مشين في هذا العصر فمن

الطبيعي جداً أن نجد مسألة الأخذ من السابقين تضميناً أو اقتباساً أو نصاً في هذه الفترة التي ينعدم فيها وجود منهج علمي متكامل للتأليف .

ومن الطبيعي أن يكون ابن جزي الغرناطي الأصل على معرفة وثيقة وجيدة بخبايا الأسلوب المصقول الجزل لمواطنه الأندلسي ابن جبير ، خاصة أن ابن جبير كان يملك شعبية كبيرة في قلوب أهل بلده . فلا غرو أن أراد ابن جزي تحلية مؤلفه بإضافة تلك القطع المونقة ، المسجوعة ، الدقيقة الرواية ، الحسنة العبارة .

إن دور ابن جزي الغرناطي في تُحرير كتاب رحلات ابن بطوطة الطنجي كانت له آثار بعيدة ، فقد جهد ما وسعه الجهد في أن يضفي على المصنف طابعاً فنياً متماسكاً لعله لم يعرف في الأصل إطلاقاً .

ومن الواضح أن ابن بطوطة نفسه لم يكن ليستحي من الاعتراف بأنه قد نسي اسم موضع ما أو اسم شخص معين قابله أو حاوره . مثل ذلك القاضي الذي نزل عليه ببلاد الشام أو تلك المدينة التي مر عليها في طريقه إلى تمبكتو الإفريقية .

وفي رأينا أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات يومية منظمة خلال تجواله حول العالم ، وعلى افتراض أنه دون مذكرات فنرى بإمكانية فقدها أو ضياعها خلال تجواله الكثير .

نضيف إلى ذلك أن ابن بطوطة لم يدر في خلده أن يكتب هذه الرحلة في عمل متكامل الجوانب لوصف أسفاره بل اكتفى بأن يقص على سامعيه حوادث معينة وقطعاً متفرقة منها .

لذلك فحين دعت الحاجة إلى الربط بينها في رواية متتابعة فإن محررها الأدبي ابن جزي بذل جهداً ليس بالقليل كي يخرج هذا العمل الذي ننظر إليه بالإعجاب كلما صافحنا سطورها .

إن ابن جزي يخرج من القصة بأكثر مما استطاع المؤلف أن يتذكره ، سواء كان ذلك عن طريق توجيه الاسئلة لابن بطوطة نفسه أو ربما استحثه بوسائل أخرى كي يتذكر بعض الدقائق في رحلته .

ولم يكن كاتب الرحلة جوّاباً للآفاق مثل ابن بطوطة ، ولم يكن على معرفة بالبلاد التي تحدث عنها ابن بطوطة ، لذا فليس غريباً أن يقع الكاتب في أخطاء عديدة عندما حاول أن يجمع بين هذه القصص المتفرقة في وحدة متماسكة . ويصدق هذا بصورة واضحة على حديثه عن رحلته في إفريقيا الشمالية عندما أخذ ابن بطوطة لأول مرة طريقه إلى مصر فدلائل الأحوال تشير إلى أن ابن بطوطة كان قد نسي وصف طريقه إليها تماماً وذلك لبعد الزمن الذي ينيف على ربع قرن .

ومن الملاحظ في وصف طريقه لمصر الاختصار الشديد إذا قورن ببقية وصف الرحلة ككل .

أما الخلط الشديد المتعلق بوصف آسيا الصغرى فيمكن رده إلى أن ابن جزي الذي حاول بلا شك أن يستخلص صورة متكاملة الجوانب بإزاء العدد الكبير جداً من الاسماء للأماكن التي يذكرها ابن بطوطة .

وكان ابن بطوطة قد قطع على نفسه عهداً بألا يأخذ طريقاً ما أكثر من مرة ، ومن ثم فإن تحديد طريقة سيره بدقة يستلزم معرفة جيدة وواضحة بالأقطار التي سلكها ابن بطوطة .

وعلى نحو ما أراد المحرر الأدبي لرحلات ابن بطوطة فإن ابن بطوطة قد أسبغ على روايته في بعض الأحايين دقة خيالية لا تمت للحقيقة بصلة ، وبالذات فيما يتعلق بتحديده للمسافات والأماكن مما كان قد أسدل عليه الزمان ستائر النسيان بالنسبة له ، كما أنه من الصعب علينا بأن نصدق أن عدداً من رحلات ابن بطوطة الكبيرة قد بدأ على وجه التحديد في غرة محرم .

الحذر والحيرة

ومن المحتمل جداً أن ابن جزي المحرر الأدبي لم يمس جوهر القصص نفسها لذا فلا يزال ينتظر إجابة شافية حتى الآن سؤال حائر بين الباحثين ألا وهو : إلى أي حد يمكن الاعتماد على صدق رواية ابن بطوطة حتى ولو وضعنا في اعتبارنا كباحثين مدى فعالية العنصر الذاتي في هذا المجال ؟!

لقد بدأ هذا التساؤل يأخذ بخناق ابن بطوطة الطنجي المغربي منذ لحظة رجوعه إلى أرض الوطن الأم تماماً كما حدث مع نظيره البندقي الإيطالي : ماركو بولو ، بل إنه يمكن استشفاف نوع من الحذر حتى عند محرر الرحلات الأدبي ابن جزي الغرناطي ويتضح ذلك في قوله :

« ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله ، بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناحي التي اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه ، فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار » .

وعندما أقرأ الكثير من الكتابات عن ابن بطوطة ورحلاته أجـد أن هذه الشكوك حول مصداقية بعض ما جـاء في الرحـلات تسير قـدماً فتارة تفيض وطوراً تغيض ، ولكنها لم تصل في أدبنا العربي أو تاريخ تراثنا الإسلامي إلى مرتبة الحدة أو تثير مثل ذلك الاهتمام الذي ترجع صداه في الأوساط العلمية الأوربية ولعله لم يكن من قبيـل الصدفـة المجـردة أن يسير التـأرجح بين الشـك واليقين في شأن ابن بـطوطة بنفس التتـابـع الـزمني الـذي سـاره مـوقف العلمـاء المحـدثين من الجغرافيين العرب الآخرين .

فـرجـال البحث الأول الـذين تعـرفـوا على المتن الأصلي لنص رحلات ابن بطوطة بصورة مباشرة مثل : (كوزغـارتن) و (لي) قد وثقوا ثقة تامة في صدق روايته ثم أعقب ذلك فترة من التشكيك بلغت غايتها في موقف النقد المتطرف الذي وقفه (يول) من ابن بطوطة .

وأخيراً في قرننا العشرين نلحظ بداية من الإعتراف بقيمته من جديد اخذ يكتسب الأنصار يوماً بعد يوم .

وتتمثـل وجهة النـظر الأخيرة في ان ابن بـطوطة يعكس بـدقة وإخـلاص العصر والـوسط اللذين عاش فيهمـا وذلك على ضـوء الظروف الحضارية السائدة آنذاك .

ابن بطوطة بين المعتقدات والكرامات

من المسلم به ان ابن بطوطة رجل مسلم قح من أهل القـرن الرابع عشر، تنقياً معظماً للأتقياء والصالحين، يزور قبورهم للتبرك بهم، ويروي كثيراً عن كرماتهم وما ينسب إليهم من أعمال البر، كإقامة الزوايا والتكايا، وحبس الأوقاف الكثيرة عليها. وابن بطوطة

مالكي المذهب مثل أهل المغرب العربي.

ويصف بعض المستشرقين هذا السلوك من ابن بطوطة بأنه كان أكثر قرباً إلى المعتقدات الشعبية منه إلى العقيدة الرسمية (السلفية)، يقصدون المعتقدات السائدة في المغرب.

ويدعون أنه لم يلق بالاً لجوانب الحياة التي تهم عصرنا الحالي.

وقد احتلت المكانة الأولى له المسائل المتعلقة بالعبادة والاولياء والمتصوفة فاعتقد في صحة الكرامات التي حكيت له أو التي حدثت له هو نفسه: مثل كرامة الشيخ خليفة السكندري، وكرامة ابي الحسن الشاذلي الذي اخبره بها ياقوت الحبشي المتصوف السكندري... الخ.

ومن حق ابن بطوطة ان يعتقد أو يؤمن بهذه الكرامات، فأولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، والاعتقاد في الاولياء والمتصوفة والكرامات لا تنافي الايمان بالله تعالى وبأسس العقيدة الإسلامية.

ويحاول أهل الاستشراق تفسير هذه الكرامات بالإنخداع النفسي، أو السلوك الجماهيري. وقد شهده بنفسه في الهند الآسيوية أي ابن بطوطة، والمبالغة التي ينساق اليها بسهولة الناس والرحالة في كل العصور.

على كل حال فنحن لا نتحدث عن التصوف والصوفية ولا ندافع عنهم لأن ذلك ليس مجاله فنحن مع ابن بطوطة وتحفته التي نعرف من خلالها رحلته، فيعرفها النظار، من غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار.

وبعيداً عما قيل وما سيقال حول هذه النقطة فان رواية ابن بطوطة عند معظم المستشرقين بوجه عام جديرة بالثقة أو أن إبن بطوطة على الاقل قد روى ما اقتنع به أو ما اعتقده انه الحق أما الأخطاء التي وقع فيها فليست بالقليلة ويجب الا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات البلاد العديدة التي زارها، وهو فيما عدا العربية كان ملماً ببعض الفارسية وربما التركية كذلك.

إلا أن معرفته بلغات الهند وقفت في الواقع عند حد ألفاظ معدودة كان يحب أن يعرضها من حين لآخر ولكن التوفيق جانبه في معظم الأحوال.

أما عن إتصالاته بالسكان المحليين فلم يكن من النادر أن يلجأ الى الاستعانة بمترجم او دليل مرشد، ولا يخفى بالطبع النتائج التي ترتبت على هذا إذْ كثيراً ما تسرب الخطأ الى اسماء البلاد الأجنبية التي يذكرها أثناء سيره كما أنه ليس من المستبعد أنه يختلط لديه ترتيبها، زد على هذا أن التتابع الزمني للرحلة غير منتظم وأن التواريخ تبدو كأن المحرر قد وضعها خبط عشواء، ونفس هذه المجموعة من الأخطاء وجدت طريقها الى الاستطرادات التاريخية.

لكل ما سبق فإنه يجب ألا يغرب على الذهن أن ابن بطوطة لم يكن عالماً نقالة، بل اعتمد اعتماداً مطلقاً على ذاكرته الخاصة، وهو كان يتمتع حقاً بذاكرة ممتازة شأنه في هذا شأن جميع ممثلي الثقافة العربية لذلك العهد.

ابن بطوطة لم يزر الصين!!؟

يجب الاعتراف في هذا المقام بأن مقدار الأخطاء الزمانية (أي في التواريخ) والمكانية (أي في المواضع الجغرافية) ضئيل لدى

ابن بطوطة عند مقارنة ذلك بالعدد الكبير من الوقائع التي يوردها.

وقد وجهت حملات النقد بصورة خاصة الى أقسام معينة من رحلته كوصفه لمدينة القسطنطنية وحكاياته عن الصين.

أما عن الأولى فقد كان إضطراب التواريخ سبباً في حدوث بعض الخلط لدى ابن بطوطة ولكن على الرغم من هذا تم الاعتراف في اكثر من دراسة صدرت في اوروبة حديثاً تعترف صراحة بأن وصفه لمدينة القسطنطنية نفسها يتسم بطابع الصحة. ولا يمكن أن ينتج الا عن معرفة حميمة ومباشرة بها فضلاً عن أنه يكشف في هذا الصدد كما هو الحال دائماً عن قوة ملاحظة خارقة.

أما المسألة المستعصية على الحل لدينا بالفعل زيارة ابن بطوطة للصين وكما يقول البحاثة (مجيك) فإنها لم تتضح بعد للحل ويجب أن يترك الباب مفتوحاً لها ولايزال إجماع الآراء أكثر ميلاً الى القول بأن ابن بطوطة لم يزر بلاد الصين.

ويقرر (شيفير) أن القليل من رواياته عن الصين يستأهل الإهتمام ولو أنه يجب الاستدراك على هذا بأن رواياته عن الصين ليست بالقليلة العدد.

وقد وصل العلامة (ڤيران) وهو من أكثر خبراء الادب الإسلامي من الأوربيين دراية بهذا المجال وبالذات في ادب الشرق الأقصى الإسلامي الى نتيجة مؤداها ان ابن بطوطة لم يزر بلاد الهند الصينية ولا الصين بل لفق روايته عنهما دون توفيق يذكر من مصادر مختلفة.

وفي هذه النقطة نقول: ان ابن بطوطة لا يكشف لنا بوجه عام عن معرفة جيدة بالأدب الجغرافي، واذا ما سلمنا جدلاً بالفرض

القائل بأن إبن بطوطة إنما اعتمد في وصفه لبلاد الصين على القصص التي سمعها من الآخرين فثمة تفاصيل معينة تجعل من العسير علينا التسليم التام بهذا الفرض، فمن الصعب القول بأن ابن بطوطة من غير أن يزور بلاد الصين قد وجد أن هناك ما يضطره الى القول بأنه قد التقى فيها برجل من أهل (سبته) ثم يذكر اسم هذا الرجل بالتفصيل، كما يذكر أيضاً أنه قابل أخاً لذلك الشخص نفسه في منطقة السودان الغربي.

مما لا ريب فيه ان الكلام يدور هنا عن حول شخصيات حقيقة كانت معروفة لكثيرين بمراكش عند رجوع ابن بطوطة إليها، فلم يكن بوسع ابن بطوطة ان يعرض نفسه أو سمعته للثلب أو القيل والقال من أجل دافع تافه.

ومنذ عهد ليس بالبعيد جداً توصل البحاثة الياباني (ياماموتو) الى رأى حول رحلة ابن بطوطة في الشرق الأقصى، لا يبلغ في شدته الرأى الذي وصل إليه (ڤيران) من قبل.

يؤكد (ياماموتو) إنه لمن العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هي من نسج الخيال وحده. حقاً إن وصف ابن بطوطة المفصل لتلك البلاد يشمل عدداً من النقاط الغامضة ولكن لا يخلو أحياناً من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين، فضلاً عن أنه من المستحيل القول بأن رواياته التي وجدت توكيداً في المصادر الصينية، وفي اسفار ماركوپولو قد كانت من تلفيق مخيلته.

ولاعتبارات ذات طابع عام خضع (ياماموتو) الياباني رواية ابن بطوطة العربي المسلم عن الصين وبلاد الطوالسي إلى تحليل دقيق.

ولنذكر عرضاً في هذا المقام ان رواية ابن بطوطة عن الصين وعن بلاد الطوالسي الغامضة قد جرت عليه سخرية بعض البحاثة، فالعلامة (يول) مثلاً قال عنها في زمنه (يجب البحث عن تلك البلاد في صفحات الأطالس التي تحتوي الخارطات البحرية مما رسمته يد الطيب الذكر القبطان جاليفر).

طوالسي هي شامبا ثم (إبن خلدون)

وبعيداً عن سخرية (يول) فإن عدداً من الباحثين ممن لم يصل بهم التشكيك إلى الدرجة التي بلغها (يول) قد حاولوا جادين العثور على هذه الجزر فبحثوا عنها في جزيرة (برنيو). وفيما بين اليابان وشامبا الواقعة في كوشين صين، وأخيراً وضعوها في (تونكين)، وقد ساق العلامة الياباني (ياماموتو) حججاً قوية للتدليل على أن (طوالسي) إنما هي شامبا بعينها التي كانت تقع بك لاشك على الطريق بين الهند والصين.

ولعل رحالتنا ابن بطوطة كان ضحية القصص التي سمعها ومعظمها قصص خرافي بحت، وهو لم يأتي بها من عندياته بل رواها له المترجمون المحليون عن تلك البلاد والرجل يجهل اللغة المحلية لهذه البلاد أو اللغات واللهجات المحلية لهذه الأقاليم ككل.

لكل ما سبق قوله فإن رواية ابن بطوطة حتى في حالات قصوى مثل بلاد الصين وبلاد طوالسي لم تعد تثير الشكوك والريب في نفس العلماء المعاصرين عما كان الحال عليه من قبل، خاصة ان رواياته عن مواضع مجاورة كجزر الملديف الإسلامية، وقد أكد الرحالة المتأخرون صحتها برمتها.

ومن الطريف ان نسوق ملاحظة لإبن خلدون في هذا الصدد، خاصة وان ابن خلدون من المؤلفين القلائل الذين ذكروا اسم ابن بطوطة بل والتقى به شخصياً.

ففي مقدمته الشهيرة وفي الباب الثالث: (في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات) في الفصل الثامن عشر: (في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها) يقول ابن خلدون:

(أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة. كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند، وهو السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه مكانة واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بممالك الأرض. وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون، مثل: أن ملك الهند إذا خرج الى السفر احصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر، تدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره، يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد، ويطوفون به، وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر، ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس، إلى ان يدخل أيوانه.

وأمثال هذه الحكايات فتناجى الناس بتكذيبه. ولقيت أيامئذ وزير

السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن، وأريته. إنكسار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه، فقال لي الوزير فارس: إياك ان تستنكر مثل هذا من أحوال الدول، بما إنك لم تره، فتكون كإبن الوزير الناشيء في السجن. وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربى فيها ابنه في ذلك المحبس. فلما أدرك وعقل، سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها فقال له أبوه هذا لحم الغنم. فقال: وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها، فيقول يا أبت تراها مثل الفار، فينكر علي ويقول: أين الغنم من الفأر؟ وكذا في لحم الإبل والبقر، إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر، فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر، وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب.

فيرجع الإنسان إلى أصوله ، وليكن مهيمناً على نفسه، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله، ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الإمكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء فلا يفرض جداً بين الوقاعات، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء، فإنا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته، أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه. إلى هنا ينتهي كلام ابن خلدون ومن هذا يتبين أن عالمين، أحدهما: ابن خلدون في القرن الرابع عشر والآخر (ياماموتو) في القرن العشرين، قد وصلا في الحقيقة إلى استنتاج واحد مؤداه انه من المستحيل رفض رواية ابن بطوطة على أساس انها تتناقض مع الواقع، ويميل العلم الأوروبي الحديث إلى أن يقف نفس هذا الموقف من ابن بطوطة.

هذا هو وضع إبن بطوطة!

ووضع ابن بطوطة في تاريخ الأدب الجغرافي واضح للعيان فهو لم يكن جغرافياً نقالة أو من أصحاب الموسوعات أو من الأدباء بل كان شخصاً عادياً للغاية لا يتمتع بأية مواهب خاصة ولا تنعكس في رواياته أفكار عميقة أو ملاحظات دقيقة. وكثيراً ما نلتقي لديه بأمثلة لتصديق أكثر الروايات إغراباً في الخيال. وعلى الرغم من كل هذا فهو شخص شاهد الكثير وعرف كيف يصور ما شاهده بدقة وبساطة، وقد جعلت منه الأقدار جغرافياً علي الرغم منه إن صح هذا التعبير، وصنعت منه لوناً من الرحالة نادراً عند العرب ذلك هو الرحالة الذي يستهدف لذاتها ويضرب في مجاهل الأرض إستجابة لعاطفة لا تقاوم ورغبة جارفة للتعرف علي الأقطار والشعوب.

وابن بطوطة رحالتنا على نقيض الغالبية العظمى من الجغرافيين العرب فهو لم يجمع مادته من بطون الكتب بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية البحتة وعن طريق محادثاته مع شخصيات واقعية تعرف عليها عرضاً من خلال رحلاته. وقد شغل اهتمامه بالمواضع الجغرافية مكانة ثانوية بالنسبة لاهتمامه بالبشر، وهو بالطبع لم يفكر في أن يجري أي نوع من البحث والتحقيق في مجال الجغرافية ولعله نتيجة لهذا قد أصبح كتابة نسيج وحده كوصف للمجتمع الإسلامي والشرقي عامة في القرن الرابع عشر. فهو خزانة تحفل بمادة غنية لا في مجال الجغرافية التاريخية أو تاريخ عصره فحسب بل عن جميع حضارة ذلك العهد.

إنني لا أبالغ إذا قلت أن ابن بطوطة مؤرخاً اجتماعياً بمعنى الكلمة، ولا أبالغ أيضاً، إذا قلت أنه أول مؤرخ للمراسم و«البروتوكولات»

ابن بطوطة مؤرخاً اجتماعياً!!

نرى ابن بطوطة يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك التي يهملها المؤرخون عادة فتمر أمام أنظارنا مراسيم البلاطات الأجنبية وأثرياء الشعوب المختلفة، وعاداتها، وتقاليدها، وحرفها، وأصناف الأطعمة والأشربة والأغذية.

لذلك اختلف كل الاختلاف مع هؤلاء الذين يصفون كتاب رحلة ابن بطوطة بأنه كتاب: نظري، جاف، بل على العكس من ذلك فهو يفيض بالحيوية والاجتماعية، ولا يبخل فيه المؤلف بملاحظاته وتعليقاته في أية مناسبة تعرض، وهو لا يمثل وثيقة ممتازة لتجربة فردية متميزة فحسب بل يقدم كذلك أنموذجاً صادقاً لأفكار وتصورات مواطن مسلم من أهل القرن الرابع عشر.

ولما كان النثر الفني له الغلبة في الأدب العربي فلم يكن من الغريب ألا يتمتع مصنف ابن بطوطة في القرون التالية بالرواج، فقد وقف منه العلماء المتزمتون موقف التحفظ وطرحوه جانباً على أنه ضرب من الحكايات والأساطير الشعبية. بل وليس في علمنا ان أحداً من المؤلفين المتأخرين قد أشار إليه مجرد إشارة إذا استثنينا الموجز الذي وضعه لرحلة ابن بطوطة في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) شخص يدعى (البيلوني) وتعرفت عليه أوروبه قبل أن يتعرف عليه العالم العربي.

وفي العصر الحديث فقط وذلك بفضل الطبعة الأوروبية للمصنف والتي أعيد طبعها مراراً بالشرق، بدأ أصل الكتاب يجد طريقه شيئاً فشيئاً إلى الأوساط العربية المثقفة في صوة مختارات

مدرسية وكتب المطالعة في أغلب الأحيان وخير مثال لها تلك الكتيبات الثلاثة التي أخرجها في سلسلته المعروفة الأستاذ / فؤاد إفرايم البستاني (عام ١٩٢٧م).

إبن بطوطة بالتركية

أما بالنسبة للأتراك العثمانيين في القرن التاسع عشر فلم يكن من السهل أن يمر ابن بطوطة هكذا دون أن يثير اهتمامهم، إن ليس لشيء فلوصفه المفصل لآسيا الصغرى على أقل تقدير، ناهيك عما يحفل به كتابه من تفاصيل هامة تتعلق بموضوعات شتى.

وقد ظهرت محاولات لترجمة رحلة ابن بطوطة إلى اللغة التركية منذ السنين الأولى للقرن الماضي وذلك في صحيفة (تقويم وقائع) والتي كان يحررها كمال أفندي التركي، أما الترجمة الكاملة للكتاب التي قام بها الداماد/ محمد شريف فقد ظهرت في أجزاء ثلاثة في نهاية القرن الماضي ١٣١٥ هـ - ١٣١٩ هـ = ١٨٨٧ - ١٨٩١م.

وللعلامة التركي الأستاذ / محمد جودت المتوفى في عام ١٩٣٥ م تعليق وافٍ على رواية ابن بطوطة عن تقاليد (الأخي) بآسيا الصغرى ومقارنته لذلك مع تقاليد (الفتيان) عند العرب.

الغرب يعرفه متأخراً

على أية حال فيجب القول بأن معرفة الاستعراب الأوربي بإبن بطوطة جاءت متأخرة بكثير عن معرفته بالإدريسي بل وحتى بأبي الفداء ومن العبث كل العبث ان نبحث عن اسمه في موسوعة

(دربلو) المعـروفـة والتي جمعت خـلاصـة المعـارف في ميـدان الاستعراب حتى القرن الثامن عشر أو عند (أشنورر) الذي سجل إسماء جميع المؤلفات التي ظهرت في عالم الاستعراب إلى عام ١٨١٠. وفي بداية القرن التاسـع عشر فقط تم الكشف عن ابن بطوطة لأول مرة. ولم يتم ذلك بواسطة العلماء ولكن بواسطة إثنين من الرحالة هم (زيتس) في ١٨٠٨ م و(بوركهارت) الذين استطاعا بحق أن يقدرا زميلهما المغربي حق قدره وإليهما يرجع الفضل في وصول مخطوطات موجز (البيلوني) إلى اوروبة لأول مرة بمكتبتي (غوطا) و(كمبريدج) وبهذا أصبح المتن في متناول أيدي العلماء. وكان أول من تناوله بالبحث العلامة (كـوزغارتن) وتلميـذه (ايتز) فقدم الأول تحليلاً عاماً للرحلة وثلاث مقتطفات من المتن تصحبها التـرجمـات والتعليقـات بعنـوان: (الـرحلة الفـارسيـة) و(الـرحلة الملديفية) و(الرحلة الإفريقية) ١٨١٨ م.

أما (إينز) فقد قام بنفس المهمة فيما يتعلق بوصفه لساحل ملبار (١٨١٩ م)، وتمثل خطوة الى الأمام في دراسة ابن بـطوطة تلك الترجمة الكـاملة للموجـز التي قام بهـا العلامـة الإنجليزي (لي) الأستاذ بجامعة كمبريدج (١٨٢٩ م) وعلى النقيض من هذا فـإن الترجمة التي قام بها (مورا) في الفترة ما بين (١٨٤٠ م - ١٨٥٥ م) معتمداً في ذلك على مخطوطة لرحلات ابن بطوطة حصل عليها من (فاس) في حوالي عام (١٧٩٧ م) لم تحظ بالعناية الكافية.

أمـا أصل الكتـاب فإنـه لم يتم العثور عليـه إلا عندمـا دخـل الفرنسيون الى الجزائر واستيلائهم على قسنطينة، وأعقب هذا، أن أخذت إلى المكتبة الأهلية بباريس الفرنسية.

ومن يزور هذه المكتبة يجد نحو من (٥) مخطوطات اثنتان منها

كـاملتان وأبعـاض منها بخط يـد إبن جزى نفسـه المحرر الأدبي للرحلات. وبهذا تمكن العلماء الفرنسيون، بعد محاولات عديدة لنشر وترجمة أقسام من الكتاب، من أن يخرجوا لنا أول طبعة كاملة للرحلة مصحوبة بترجمة فرنسية كاملة للنص في أربعة أجزاء قام بها المستشـرقين (دفـريمـري) وزميله (سـانغني) في الفتـرة مـا بين (١٨٥٣ م) و(١٨٥٨ م) وقد قوبل ظهور الجزء الأول بحماس شديد أظهره العلامة (رينان) في كتاباته عن هذا الجزء وقام بنشر دراسة مطولة عن ابن بطوطة تتسم بالكثير من الحيوية. ولا تزال الطبعة الفرنسية في جوهرها إلى أيامنا هذه تمثل الأساس الذي قامت عليه الأبحاث المختلفة عن رحلة ابن بطوطة.

وقد أعيد طبعها أكثر من مـرة ولكنها ـ لـلأسف الشديـد ـ في مجموعها لفحص منظم جاد على الرغم من أنه لا يمكن بالطبع ان ترضي في الوقت الحاضر متطلبات البحث العلمي المعاصر.

غير أن الدراسات المستقلة التي تناولت بحث فصول مختلفة من الرحلة أو عالجت مسـائل متعلقـة بذلـك قد زاد عـددها بصـورة ملحوظة، ويمكن إعطاء فكرة عامة عن الرحلة (البطوطية) بأجمعها من خلال الترجمات التي عملت لأقسام مختلفة من الكتاب، أعني بذلك ترجمات البحاثة (مجيـك) في (١٩١١ م) وجب (١٩٢٩) المزودة بتعليقات موجزة مفيدة والتي يمكن أن تعد القول الفصل الى يومنا هذا في دراسة ابن بـطوطة (منـافس ماركـوبولـو). وأن الاهتمام الذي قابلته به اوربة في القرنين التاسع عشر والعشـرين ليقف بـرهانـاً قاطعـاً على صدق قـول ابن جزى المحـرر الأدبي للرحلات في خاتمة الكتاب.

«ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد».

وعندما نراجع مصادرنا ومراجعنا فإنما نراجع بذلك رجل الرحلات المتميز، أو أخر رحالة عربي كبير، كما وأننا بقراءتنا عن الرجل نقرأ آخر موسوعات عصر المماليك، آخر المصنفات الكبيرة التي تقدم عرضاً عاماً للأدب الجغرافي العربي الإسلامي.

مع جوّاب الآفاق

ما زلنا نتحدث عن ابن بطوطة المولود عام (١٣٠٤ م) والمتوفي عام (١٣٧٨ م) رحالتنا العربي المشهور (محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتي (الطنجي) شهدت مدينة طنجة المغربية مولده في شهر رجب الحرام عام (٧٠٣ هـ) في اليوم الرابع والعشرين من فبراير (١٣٠٤ م).

تجمع المصادر أن ابن بطوطة نشأ في بسطة من العيش، وسعة من الرزق، ثم خرج من مدينة طنجة المغربية وقد قارب الثانية والعشرين من عمره قاصداً بلاد الحجاز المشرقة لأداء فريضة الحج، فمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الليبية ومصر، ثم قصد إلى ميناء عيذاب المصري المطل على البحر الأحمر، فلم يتهيأ له العبور، فعاد إلى الفسطاط العاصمة المصرية (القاهرة) ثم رحل عنها إلى فلسطين العربية، ولبنان وسورية والحجاز، فحج حجته الأولى، ومن مكة المكرمة سافر إلى بلاد العراق، وإلى إيران الفارسية (العجمية) وتركيا وما يجاورها من بلاد الأناضول، ثم عاد إلى مكة حيث حج إلى بيت الله الحرام للمرة الثانية ـ وظل بمكة

سنتين ثم غادر بلاد الحجاز إلى اليمن، وعَبر البحر إلى إفريقيا الشرقية ثم رجع منها ماراً بجنوب جزيرة العرب حتى الخليج العربي، فزار سلطنة عمان والبحرين، والإحساء، ثم عاد إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج للمرة الثالثة، ثم خرج من مكة إلى بلاد الهند ماراً بخوارزم، وخرسان وتركستان، وأفغانستان وعاصمتها كابول، ثم بلاد السند وتولى هناك القضاء في دهلى على المذهب المالكي للسلطان/ محمد شاه، ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفدا إلى ملك الصين خرج ابن بطوطة فيه، وفي طريق عودته مر بجزيرة سرنديب (سيرلانكا) وجزائر الهند والصين ومن هناك عاد إلى بلاد العرب من طريق سومطرة الأندونيسية عام ١٣٤٧ م، فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين ومنها عاد إلى مكة للمرة الرابعة ليؤدي فريضة الحج.

وعندئذ تاق إلى العودة إلى أرض الوطن مسقط رأسه، فمر بمصر وتونس والجزائر والمغرب ووصل إل فاس عام ١٣٤٩ م.

ولم يمكث ابن بطوطة في وطنه طويلاً، بل استأنف رحلته إلى بلاد الأندلس عابراً مضيق جبل طارق إلى غرناطة، ثم عاد مرة ثانية إلى مدينة فاس المغربية، وألقى فيها عصا التسيار.

وعاوده الحنين مرة أخرى إلى السفر، فغادر وطنه إلى السودان ومر بسجلماسة، وتفازا، ومالي، وزاغري، وتمبكتو وهكار، وغيرها حتى إذا ما روى غليله من التنقل والسفر عاد إلى فاس.

وواضح ان ابن بطوطة قد لاقى الكثير من الصعاب في رحلاته والمشقات، واصيب ببعض الأمراض لذلك نجده يقول في أول رحلاته من الجزائر الى بجاية انه أصيب بالحمى. وأيضاً عندما

دخل مدينة بونة أصابتـه الحمى، فكان يشـد نفسه بعمـامة فـوق السرج، خوف السقوط بسبب الضعف الشديد الذي أصابه.

نضيف إلى ذلك وعورة الطريق، والأمطار والسيول، والجبال والهضاب والحر الشديد، وقطاع الطريق، واللصوص.

●

والقارىء للرحلة يدرك سمة واضحة في إبن بطوطة وهي شدة الحساسية، والشعور المرهف، والعاطفة الجياشة، وكـان شعوره بالوحدة في الغربة يدعوه إلى الاكتئاب والانقباض والحزن إذ ترك أهله وعشيرته وخلانه وهو في شرخ الشباب.

ويقول لنا في مقدمة رحلته الطويلة أنـه ترك والـديه، فتحمـل لبعدهما وصباً، كما لقي من الفراق نصباً.

ولما علم بوفاة والدته في أثناء غيبته في رحلته الأولى تملكـه الحزن الشديد، واستبد به الأسى، وانكفأ على قبرها يبكيها.

ويقول في كتابه: «فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم على أحـد لعدم معـرفتي بهم، فوجـدت من ذلك في النفس، ما لم أملك معه سوابق العبرة واشتد بكائي فشعر بحالي بعض الحجاج، فأقبل عليّ بالسلام والإيناس».

وكما قلنا فقد أملى ابن بطوطة رحلاته على الأديب محمد ابن جزى الكلبي، فانتهى من تحـريرهـا عام ١٣٥٦ م وأطلق عليهـا (تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأمصار).

لقـد صـدر الأمر إلى محمـد بن محمـد بن جـزى الكلبي من السلطان أبي عنان فارس حاكم المغرب المريني أن يضم أطراف ما

أملاه (الشيخ ابو عبدالله) ابن بطوطة الذي طاف الأرض معتبراً، وطوى الأمصار مختبراً، وباحث فرق الأمم، وسبر سير العرب والعجم، ثم ألقى عصا التسيار بحضرة السلطان المريني، لما علم ان لها مزية الفضل دون شرط أو استثفاء، وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب، وآثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب، إختياراً بعد طول اختبار البلاد والخلق، ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق، فغمره من إحسانه الجزيل، وامتشاقه الحفي الحفيل، ما أنساه الماضي بالحال، وأغناه عن طول الترحال، وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه، فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد، وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد، ونفذ الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها الابرار، فأملى من ذلك مافيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلائها، وعجيبة أطرف بانتحائها.

لقد ضمّ ابن جزى الكلبي ما أملاه عليه ابن بطوطة في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً، ولنيل مقاصده مكملاً، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمداً إيضاحه وتقريبه، ليقع الاستمتاع بتلك الطرق، ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدق، فامتثل ما أمر به مبادراً، وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادراً.

ونقل ابن جزى معاني كلام ابن بطوطة، بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها، موضحة للمناحي التي اعتمدها، وربما أورد جميع

ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم يتعـرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار، على أنه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك، وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجـال بالشكـل والنقط، ليكون أنفـع في التصحيح والضبط.

وشرح ابن جزي ما أمكنه شرحه من الأسمـاء العجمية، لأنهـا تلتبس بعجميتهـا على الناس ويخـطىء في فك معمـاها معهـودو القياس.

ويرجو المحرر الأدبي لرحلات ابن بطوطة أن يقع ما قصده من أبي عنـان المريني محـل القبول، وأن يبلغ من الإغضـاء عن تقصيـره المـأمول، فهم عنـده عوائـدهم في السمـاح جميلة، ومكـارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة. ثم يدعو لبني مريم بدوام عادة النصر والتمكين، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين.

* * *

لقد كشفت رحلات ابن بطوطة عن أسرار كثير من البلاد التي زارها رحالتنا العربي المسلم إذ يعد أول من ذكر ـ على سبيل المثال ـ عن استعمال ورق النقد المالي في بلاد الصين ، وعن استخـدام الفحم الحجري في الوقود .

لقـد كان على حق المستشـرق « دوزي » حينمـا أطلق على ابن بطوطة « الرحالة الأمين » .

لقد أفاد رحالتنا علم الجغرافية بفروعه المختلفة وذلك فيمـا ذكر من أوصـاف للبيئة الـطبيعيـة والتضـاريس ، والجغـرافيـة البشـريـة

والأنتروبولجي ، وعلم السكان ، والعادات والتقاليد الاجتماعية وما إلى ذلك من أمور تهم علماء الجغرافية والاجتماع والمأثورات الشعبية ، وغيرهم من المهتمين والدارسين لأحوال الأمم والشعوب .

أم البلاد

وقد وصف ابن بطوطة مصر في رحلته وصفاً جميلاً معبراً :

« وهي أم البلاد ، وقرارة فرعون ذي الأوتاد » (سمي بذلك لكثرة جنده وخيامهم وأوتادهم ، أو لأنه كان يدق لمن يريد تعذيبه أربعة أوتاد يربطه فيها ثم يعذبه بما يشاء) ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة (الزكية ، المعجبة ، خليقة للخير) ، المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر معروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها ، شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم ، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم ، لها خصوصية النيل التي جل خطرها ، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة . **قال ابن جزي - وفيها يقول الشاعر :**

لعمرك ما مصر بمصر وإنما
هي الجنة الدنيا لمن يتبصر

فـأولادهـا الـولـدان والـحـور عـيـنـهـا
ورو ضـتـهـا الـفـردوس والـنـيـل كـوثـر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شـاطـىء مصر جـنـةٌ ... مـا مـثـلهـا مـن بـلـد
لا سيـما مـذ زخـرفـت ... بـنـيـلهـا المـطَّرد
ولـلـريـاح فـوقـه ... سـوابـغٌ مـن زرد
مسـرودة مـا مسَّـهـا ... دوادهـا بمـبرد
والفلك كـالأفـلاك بـين ... حـادرٍ ومـصـعـد

* * *

ويقول ابن بطوطة إن بمصر وقت زيارته لهـا من السقائين (١٢) ألف سقاءً ، وأن بها (٣٠) ألف مكار (حمار أو حوذي) ، وبنيلها من المراكب (٣٦) ألفاً للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق .

ويتحـدث عن جزيـرة الـروضـة المصريـة وهي مكـان للنـزهـة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة .

ويصف أهل مصر بأنهم ذوو طرب وسرور ولهو ، وقد شاهـد بها مرة فرجة بسبب شفاء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا على حوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير ، وبقوا على ذلك أياماً .

ويتحـدث عن مسجد عمـرو بن العاص ويصفـه بشرف القـدر ، والكبر ، واشتهار الذكر ، وأن صلاة الجمعة تقام به والطريق يعترضه

من شرق إلى غرب ، وبشرقه زاوية كان يدرس الإمام الشافعي بها .

ويقول أن مدارس مصر لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها .

ويصف المستشفى أو (المارستان) بأن الواصف يعجز عن وصف محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر وجبايته ألف دينار كل يوم .

أما الزوايا أو الأماكن التي كان يتعبد بها الصوفيون فكثيرة ، وكان أمراء مصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم ، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ؛ ولكل زاوية شيخ وحارس .

ومن عاداتهم في الطعام أن يأتي خادم الزاوية إلى الفقراء صباحاً ، فيعين له كلّ واحدٍ ما يشتهيه من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل ، جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد .

وطعام المتصوفة مرتان في اليوم ، ولهم كسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين . ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم ، والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح .

والمتصوفة أغراب ، وللمتزوجين منهم زوايا على حدة . ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية . واجتماعهم بقبة داخل الزاوية .

ومن عادات الصوفية أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به . وإذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك

وجزء (عم) ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة ، فيأخذ كل فقير جزءاً ثم يختمون القرآن ويذكرون .

ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر . ومن عاداتهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية ، فيقف به مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادة ، وبيمناه العكاز ، وبيسراه الإبريق ، فيعلم خادم الزاوية بمكانه ، فيخرج إليه ويسأله من أي البلاد أتى ؟ وبأي الزوايا نزل في طريقه ؟ ومن شيخه ؟ فإذا عرف صحة قوله ، أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ، ويأتي إلى سجادته فيحل وسطه ويصلي ركعتين ، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد منهم .

ويواصل ابن بطوطة حديثه عن الصوفية والمتصوفة والزوايا في مصر فيقول أنه من عاداتهم أنهم إذا جاء يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم ، فيذهب بها إلى المسجد ، ويفرشها لهم هنالك ، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم ، فيأتون المسجد ، ويصلي كل واحد على سجادته ؛ فإذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم ، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

ويتجول ابن بطوطة في قرافة مصر ومزاراتها ويصف كيف تبنى هذه القرافات ، وخروج الناس إليها في المواسم الدينية ويزور المشهد الحسيني ، والسيدة / نفيسة بنت الحسن الأنور ، ومقام الشافعي وقبور العلماء والصالحين الذين لا يضبطهم الحصر ، وقبور جمة من الصحابة وصدور الخلف والسلف .

* * *

ويذكر نيل مصر واصفاً إياه بأنه يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ، ليس في المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل. وليس في الأرض نهر يسمى بحراً غيره .

قال الله تعالى : ﴿ فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ﴾ فسماه يماً وهو البحر .

ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال ، خلافاً لجميع الأنهار . ومن عجائبه أنه ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها ، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها .

ونهر السند مثله في ذلك ، وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه ؛ فإذا بلغت زيادته ست عشرة ذراعاً تم خراج السلطان ، فإذا زاد ذراعاً كان الخصب في العام ، والصلاح التام ، فإن بلغ ثماني عشرة ذراعاً أضر بالضياع ، وأعقب الوباء ؛ وإن نقص ذراعاً من ست عشرة نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهي : النيل ، الفرات ، والدجلة ، وسيحون ، وجيحون . وتماثلها أنهار خمسة أيضاً : نهر السند ويسمى بنج أب (أي الأنهر الخمسة) ، ونهر الهند ويسمى الكنك (الكنج) ، وإليه تحج الهنود . وإذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه .

والنيل في مصر يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاءً وصيفاً ، وأهل كل بلد لهم خلجان

تخرج من النيل ؛ فإذا أمد ترعها فاضت على المزارع .

* * *

لقد وصف ابن بطوطة مصر وحالتها الاجتماعية ، وطبيعة المصريين كما تحدث عن نيلها وجماله وعذوبته ، ومسجد عمرو بن العاص ، والمدارس ، والمارستانات ، والزوايا ، والقرافة ، والمزارات ، والأهرام ، والمعابد ، والهياكل ، وتحدث عن سلطان مصر الناصر قلاوون الصالحي .

ولا ينسى ابن بطوطة أنه مغربي فيقول أن الزوايا التي بناها قلاوون للفقراء في يسر ياقوص تفوقها زوايا أبي عنان فلا نظير لها في المعمور ، في إتقان الوضع ، وحسن البناء والنقص في الجص ، بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله .

وأعتقد أن هذا الكلام بحذافيره للمحرر الأدبي ابن جزي الذي يعمل في خدمة أبي عنان المريني ولا أعتقد أن ابن بطوطة الرجل الواسع الأفق ينحاز مثل هذا النحيز .

وذكر ابن بطوطة قضاة مصر وأشهر أمرائها وعلمائها وأعيانها ورجالها أيام أن دخلها .

ويصف يوم المحمل ، ويتحدث عن سفره إلى صعيد مصر : منية القائد ، بوش مدينة الكتان المصرية ، دلاص ، بيا ، البهنسا ، منية ابن خصيب وحكايته الغريبة الملفقة المأخوذة بالطبع من الرواة والقصاصين الذين التقى بهم ، منلوي ومعاصر السكر بها .

ويشير إلى مدى التكافل الاجتماعي بين المصريين والذي يتضح

في منلوى التي بها إحدى عشرة معصرة للسكر . ومن عاداتهم أنهم لا يمنعون فقيراً من دخول معصرة منها ؛ فيأتي الفقير بالخبزة الحارة ، فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ، ثم يخرجها (وقد امتلأت سكراً) فيتصرف بها .

ويتجه إلى مدينة منفلوط ، ويصفها بحسن الرواء ، والبناء المونق على ضفة النيل ، شهيرة البركة .

ويسافر إلى أسيوط مدينة رفيعة ، أسواقها بديعة ، والفقراء الذين يأتون للقاضي فيأخذون منه ما يريدون .

وذهب من أسيوط إلى مدينة (أخميم) الأصيلة البنيان ، العجيبة الشأن بها المعبد المعروف باسم معبد (أخميم) ، مبني بالحجارة ، في داخله نقوش وكتابة للأوائل ،لا تفهم في هذا العهد ، وصور الأفلاك والكواكب ، وصور الحيوانات وذلك الرجل الذي اتهم بسرقة الآثار من أخميم وأمر بهدم المعبد الأخميمي ، وابتنى بحجارتها مدرسة .

ثم يذكر عادات أهل أخميم في الاجتماع بعد صلاة الجمعة للقرآن وذكر الله ، إلى صلاة العصر ، فإذا صلوها قرءوا سورة الكهف ثم انصرفوا .

وسافر من أخميم إلى مدينة (ُهو) بساحل النيل وضبطها بضم الهاء وفيها يقرأ في كل يوم بعد صلاة الصبح حزباً من القرآن الكريم ، ثم يقرءون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، وحزب البحر .

ويقول ابن بطوطة أنه التقى في (هو) بالسيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني ، من كبار الصالحين متبركاً برؤيته والسلام عليه ، فسأله عن قصده ، فأخبره أنه يريد حج بيت الله الحرام عن طريق جُدة المكرمة ، فقال له : لا يحصل لك هذا في هذا الوقت ، فارجع وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامي . فانصرف عنه ولم يعمل على كلامه ، ومضى في طريقه حتى وصل عيذاب ، فلم يمكن السفر ، فعاد راجعاً إلى مصر ، ثم إلى الشام ، وكان طريقه في أول حجاته على الدرب الشامي بالفعل ، على ما أخبر به الشريف .

ثم سافر إلى مدينة (قنا) ، وهي صغيرة حسنة الأسواق وبها زار مشهد الصالح الولي عبد الرحيم القنائي ، والتقى في المدرسة السيفية بحفيده شهاب الدين أحمد .

وسافر إلى قوص المدينة العظيمة ، لها خيرات عميمة ، بساتينها مورقة ، وأسواقها مونقة ، ولها المساجد الكثيرة ، والمدارس الأثيرة ، وهي منزل ولاة الصعيد ، وبها علماء أجلاء .

وسافر إلى مدينة الأقصر وهي صغيرة حسنة ، وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري وعليه زاوية .

وسافر إلى (أرمنت) ، وهي مدينة صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل ، أضافه قاضيها الذي نسي اسمه .

ثم ذهب إلى مدينة (أسنا) مدينة عظيمة ، متسعة الشوارع ، ضخمة المنافع ، كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع ، لها أسواق حسان ، وبساتين ذات أفنان ، قاضيها أكرمه وأضافه وكتب إلى نوابه بإكرامه .

ثم سافر إلى أدفو بعد يوم وليلة . ومن مدينة أدفو جرهم النيل إلى مدينة العطواني واشتروا منها جمالاً ومشى في الصحراء أمنة السبل .

ونـزلوا إلى (حميثـرا) حيث قبـر ولي الله أبي الحسن الشـاذلي صاحب الكرامات وقضوا ليلتهم في محاربة الضباع .

ووصل إلى عيذاب وهي مدينة كبيـرة كثيرة الحـوت (الأسماك) واللبن ، ويحمـل إليهـا الـزرع والتمـر من صعيـد مصـر ، وأهلهـا البجاة ، وهم سود اللون ، يلتحفون ملاحف صفراً ، ويشدون على رءوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها إصبعاً ، وهم لا يورثون البنـات ، وطعامهم ألبـان الإبل ، ويـركبـون المهـاري ويسمـونهـا الصهب . وثلث المدينة تحت سلطة الملك الناصر قلاوون ، وثلثاها لملك البجـاة ويعـرف بـالحـدربي . وفي عيـذاب مسجـد ينسب للقسطلاني ، الذي قابله ابن بطوطة وتبرك به ، كما قـابل عـدداً من الصالحين بها والعلماء الأفاضل .

القدس موعدنا

عـاد ابن بطوطـة إلى شمـال مصـر : من عيـذاب إلى قـوص ثم بلبيس ، ويصفها بان مدينة كبيرة ، ذات بساتين كثيرة ، ولكنه لم يلق بها من يحب ذكره . ثم وصل إلى الصالحيـة ، ومنها دخـل الرمـال ونزل منازلها ، وبكل منزل منها فنـدق وهم يسمونـه الخان ، ينـزله المسافرون بـدوابهم ، وبخارج كـل خان سـاقية للسبيـل وحانـوت يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ولدابته .

ومن منازلها (قطية) المشهـورة وبها تؤخـذ الزكـاة من التجار ،

وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال ، والكتاب والشهود ، ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب .

ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس ، وتوقياً من الجواسيس .

ويدخل إلى غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر ، متسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد الكثيرة ، والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن . والمسجد الذي تقام به الجمعة فيها ، بناه الأمير الجاولي ، وهو أنيق البناء ، محكم الصنعة ، ومنبره من الرخام الأبيض .

ويدخل مدينة الخليل (صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليماً) ليصفها ويزور مقابرها : قبر إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وأزواجهم ، وقبر يوسف ، وقبر لوط ، وقبر فاطمة بنت الحسين ـ ومن الخليل سافر إلى القدس ، فزار في طريقه إليه قبر يونس ، وزار بيت لحم ، موضع ميلاد عيسى (عليه السلام) .

ووصل إلى بيت المقدس ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ومعرجه إلى السماء .

والبلدة كبيرة منيفة ، مبنية بالصخر المنحوت . وكان صلاح الدين هدم بعض أسوارها عند فتحها ، ثم أتم الملك الظاهر هدمه ، خوفاً

أن يقصدها الروم (الفرنجة) فيمنعوا بها . ولم يكن بهذه المدينة نهر وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكير أمير دمشق .

ويـذكـر المسجـد الأقصى الشـريف ، وقبـة الصخـرة ، وبعض المشـاهد المبـاركة بـالقدس الشـريف . كذلـك ذكر بعض فضـلاء القدس ، وعلماء ديارها .

وزار عسقـلان ، ومـدينـة الـرملة (وهي فلســطين) ونـابلس ، وعجلون ، والـلاذقيـة ، وعكـا ، وصـور ، وصيـداء ، وطبـريـة ، وبيروت ، وطرابلس اللبنانية ، حصن الأكراد ، وحمص ، وحماه ، ومعرة النعمان ، سرمين ، وحلب .

وممـا جاء ذكـره في وصف حلب قـولـه : (وقلعـة حلب تسمى الشهباء ويداخلها جبان ينبع منهما الماء ، فلا تخاف الظمأ . ويطيف بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء . وسـورها متـداني الأبراج ، وقد انتظمت بها العلالي العجيبة ، المفتحـة الطبقـات ، وكل برج منهـا مسكون . والـطعام لا يتغيـر بهذه القلعـة على طول العهـد . وبهـا مشهــد يقصـده بعض النــاس ، يقـال أن الخليــل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق على الفرات ، بين الشام والعراق . ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب ، حاصر هذه القلعة أياماً ، ونكض عنها خائباً) .

بعد أن أسهب في وصف منازل ومساجد وقلاع حلب ومساجدها ومساكنها وزواياها وعلماء ورجال ديارها .

ثم سافر إلى مدينة (تيزين) على طريق (قنسرين) ، وإنطاكيـة التي بخارجها نهر العاص .

وسافر إلى حصن بغـراس ، وحصن القصير ، وحصن الشعـر ، ومـدينـة صهيــون ، حصن القـدمــوس ، حصن المنيقـة ، حصن العليقة ، وحصن مصياف ، وحصن الكهف وهذه الحصون لـطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية .

وزار مدينة جبلة بلد الوالي الصالح إبراهيم بن أدهم ـ ثم زار مدينة اللاذقية وحصن المرقب ، وجبل لبنان .

ومن جبل لبنان إلى مدينة بعلبك وهي من المدن الحسنة القديمة من أطيب مـدن الشام (وتحـدق بها البسـاتين الشريفـة ، والجنات المنيفة ، وتخترق أرضها الأنهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية ، وبها يصنع الدبس المنسوب إليهـا ، وهو نـوع من الرب يصنعونه من العنب ، ولهم تربة يصفونها فيه فيجمد ، وتكسـر القلة التي يكون بها فيبغي قطعة واحدة ، وتصنع منهـا الحلواء ، ويجعل فيها الفستق واللوز ، ويسمونها حلواء الملبن ، ويسمونها أيضاً بجلد الفرس .

ويصنع بعلبك الثياب المنسوبة إليها من الاحرام وغيره ، ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد ، وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصفحة وصنعوا صفحة أخرى إلى أن يبلغوا العشر ، يخيل لرائيها أنها صفحة واحدة ، وكذلك الملاعق يصنعون فيها عشراً واحدة في جوف واحدة .

دمشق يا جنة المشرق !!

● قدم لنا ابن بطوطة صورة واضحة عن نهضة الصناعة في مدن الشام في هذه الحقبة من التاريخ .

ـ ووصـل ابن بطوطـة دمشق في يوم الخميس السـابـع من شهـر رمضـان المعـظم عـام ستـة وعشـرين وسبعمـائـة (٧ أغسطس ١٣٢٦ م) ، ونزل فيها بمدرسة المالكية المعروفة بـ (الشـرابشية) ودمشق عنده تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً وقـد أورد في ذلك قول ابن حبيرة في رحلته :

(أما دمشق فهي جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناهـا . قد تحلت بأزاهير الـرياحين ، وتجلت في حلل سنـدسية من البسـاتين وحلت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمـل تزيين ، وتشرفت بأن أوى المسيح (عليه السلام) وأمه منها إلى ربوة ذات قرار ومعين . . . ظل ظليـل ، وماء سلسبيـل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمتجلى صفيل ، وتناديهم : هلموا إلى معرس للحسن ومقيل . وقد سئمت أرضها كثرة المـاء ، حتى اشتاقت إلى الظمأ) .

[وصف شاعري رقيق]

ووصف ابن بطوطة بعد ذلك جامع دمشق المعـروف بجامـع بني أمية (المسجد الأموي) وبعض المشاهد والمزارات بها ، وأرباض دمشق ، وجبل قاسيون في شمال دمشق ، والصالحية في سفحـه ، والربوة والقـرى التي تواليهـا ، والأوقاف في دمشق وبعض فضـائل أهلها وعاداتهم ، ومن ذلـك قولـه في وصف الحياة الاجتمـاعية في شهر رمضان المبارك : (ومن فضائـل أهل دمشق أنـه لا يفطر أحـد منهم في ليـالي رمضان وحـده البتة فمن كـان من الأمـراء والقضـاء

والكبراء فإنه يدعو أصحابه الفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً .

وانتقل ركب ابن بطوطة بعد ذلك إلى الحجاز فعرج على المدينة ، ووصف مسجد رسول الله وروضته الشريفة ، ووصف المنبر الكريم ، والخطيب والإمام بمسجد رسول الله ، وخدامه ، ومؤذنيه ، وبعض المشاهد بخارج المدينة الشريفة . ووصف الطريق إلى مكة ، فمكة نفسها ، والمسجد الحرام ، والحجر الأسود ، والحجر والمطاف وزمزم ، والصفا والمروة ، والجبانة المباركة ، والجبال المحيطة بمكة ، وأهل مكة وفضائلهم ، ثم وصف العراق وإيران ، فتركيا والقسطنطنية وغيرها من البلاد .

عادات الهند

وله في الهند وجزرها ، وجاوة وسومطرة وغيرها ، أوصاف شتى ومن طريف ما ذكره في الهند قوله : (ولما عبرنا نهر السند المعروف (بينج اب) دخلنا مزرعة قصب ، لأن الطريق يسير في وسطها ، فخرج الكركدن ـ وهو حيوان أسود اللون ، ضخم رأسه كبير متفاوت الضخامة فلذلك يضرب به المثل ، فيقال الكركدن رأس بلا بدن وهو أصغر من الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ذراعين . ولما خرج علينا ، اعترضه بعض الفرسان في طريقه ، فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه فنفذ في فخذه وقتله »!! .

ووصف ابن بطوطة بعض عادات أهل الهند ، مثل إحراق النساء ، فقال ولما انصرف هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم : ما الخبر ؟ . . . فأخبروني بأن أحد الهنود مات ، وأشعلت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه ، ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروني أنها عانقت الميت حتى احترقت معه . ثم اتفق بعد ذلك أن كنت في مدينة قتل منها سبعة من الهنود وكان لثلاثة منهم زوجات فاتفقن على إحراق أنفسهن ، وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مرغوب فيه ولكنه غير واجب ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونسبوا إلى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست الثياب الخشنة وأقامت عند أهلها يائسة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها .

الأفراح الهندية

ووصف الأعراس بالهند وصفاً جميلاً رائعاً فقال : (لما أمر السلطان بتزويج أخته بالأمير غدا ، عين بشأن الوليمة وتفنانها الملك فتح الله المعروف بشونويس ، وعييني لملازمة الأمير ، فأتى الملك فتح الله بالصيوانات تظلل بها أفنية القصر ، وضرب في كل واحد منها قبة ضخمة جداً ، وأتى بأمير المطربين ، ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات ، والراقصات ، وكلهم مماليك السلطان ، وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين وصانعي الحلوى والشراب والأفاوية ، وذبحت الأنعام والطيور ، وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً ، ويحضر الأمراء والكبار والأعزة ليلاً ونهاراً فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلاً إلى القصر

فزينه بأحسن الفرش وجاء الأمير ، وأجلسه على المرتبة ، وجعل له الحناء في يديه ورجليه ، وأقام باقيهن على رأسه ، يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف ، وأقام هو مع خواص أصحابه . . .) .

السباع الهندية

ووصف سطوة السباع في الهند فقال : (إن بمدينة برون سباعاً كثيرة وذكر له بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلاً وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيراً ! ، وكانوا يعجبون من شأن دخوله كما أخبره جار له أن السبع دخل داره ليلاً ، وافترس صبياً من فوق السرير ! . وأخبره غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة ، فافترسه أسد فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطروحاً بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لَحْمه . ومن العجب أن بعض الناس أخبره أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية ، يتصور في صورة سبع) !!! .

نساء الملبار

ووصف ابن بطوطة جزر (الملبار) ، وغيرها من جزر المحيط الهندي وتنقل بين أنحاء سيلان ، وذكر أن جميع النساء بالجزيرة لهم قلائد من الياقوت الملون ، ويجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضاً من الإسورة وجواري السلطان يصغن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهن . ورأى ابن بطوطة على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر أعظم من بيضة الدجاجة .

الحيوانات في الصين

وله في جاوة الأندونيسية والصين أوصاف شائقة ، منها أن دجاج الصين وديوكها ضخمة جداً ! . . . أضخم من الأوز ! ، وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الأوز عندنا ! أما الأوز عندهم فلا ضخامة له وأراد ابن بطوطة أن يأكل دجاجاً ، فاشترى واحدة وأراد طبخها في إناء واحد فلم يسع لحمها فجعلها في إنائين ! . والديك هناك على قدر نعامة ! ، وربما أنتف ريشه فيبقى كتلة من اللحم حمراء ! وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم ، وهم أقل رفاهية ، وسعة عيش ، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة . وجميع أهل الصين يحتفلون في أواني الذهب والفضة ، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ، ويقولون : هو الرجل الثالثة .

حرير الصين

والحرير في الصين كثير جداً لأن الدودة [دودة القز] تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج لكثير من المؤونة ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب من الحرير . كما ذكر ابن بطوطة حقيقة تاريخية هامة في رحلته ، وهي استخدام أهل الصين لورق النقد فقال : (وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسكبونه قطعاً كما ذكرناه ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ورق) كل قطعة منها بقدر الكاف ، مطبوعة بطابع السلطان) وجميع أهل الصين إنما

(فحمهم تراب عندهم معقد كالطفْل عندنا) ولـونه لـون الطفـل ، تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه كالفحم ، وهو أشـد حرارة من نـار الفحم . وإذا صـار رماداً عجنـوه بالمـاء) وجففوه وطبخـوا به ثـانية ، ولا يـزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى . ومن هذا التراب يصنعـون أواني الفخار الصيني . ويضيفون إليه حجارة سوداء .

وذكر ابن بطوطة أن أهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات ، وأشدهم إتقاناً فيها . أما التصوير فلا يحاربهم أحد في إحكامه . ولا من الروم ولا ممن سواهم ومن عجيب ما شاهد أنه ما دخل قط مدينة من مدنهم ، ثم عاد إليها إلا ورأى صورتـه وصور أصحـابه منقـوشة على الحيطان والورق !. موضوعة في الأسواق ! .

الخير الأندلسي

ووصف ابن بـطوطـة رحلتـه إلى الأنـدلس بعـد ذلـك فقـال عن خيـراتها : (رأيت العنب يبـاع في أسواقهـا بحساب ثمـانية أرطـال بدرهم صغير ، ورمانها المارسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا ، وأما التين واللوز فيجلبان منها إلى المشرق والمغرب) .

وتنقـل بين مالقـة إحدى قـواعد الأنـدلس وغرنـاطة ، وغيـرها . وجاس في أرض مراكش وتونس . ثم عاد إلى مدينة فاس .

وأزمع السفر في الرحلة الثالثـة إلى السودان وقـال : (إن الملح كثير هناك يتصارف السودان كما نتصارف بالذهب والفضة ويقطعونه قـطعاً ويتبـايعون بـه . وقريـة تغازي . على حقـارتها يتعـامل فيهـا بالقناطير المقنطرة من التبر) .

الذباب مشكلة

وضايقت ابن بطوطة في رحلته كثرة الذبـاب ، والماء الـزعاق ، وقال أن العمل يكثر في بعض المدن حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطاً فيها الزئبق فيقتله . إلا أنه أشاد بغلات السودان من القمح ، واللوبياء ، والأرز ، والسلع العطرية ، والبخور وما إلى ذلك . ومن العادات الحسنة التي ذكرها ابن بـطوطة عن أهـل السودان أنهم من حفظة القرآن ، ويدفع الآباء ابنائهم إلى حفظه دفعاً . ومر ابن بطوطة مرة بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل ، فقال لمن كان معه : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عنه الشاب وضحك وقيل له إنما قيد حتى يحفظ القرآن .

* * *

وهكذا أخذ ابن بطوطة يقص علينا رحلته وعلى هذه الوتيرة مضى يملي مشـاهداتـه ، في كتاب (تحفـة النـظار في غـرائب الأمصـار وعجائب الأسفار) وقـد وجه الأنـظار إلى رحلته فمضى النـاس بين مصـدق ومكذب ، وشـك ابن خلدون في مقدمتـه في بعض ما ورد ذكره في هذه الرحلات على أن رحلة ابن بطوطة ظلت موضع التفات كثير من المستشرقين والباحثين فترة طويلة وانتقدها الفرنجة ، وعلقوا عليها ونقلوا بعضها إلى اللغة اللاتينيـة ونشروه ، ونقلهـا (لي) إلى اللغـة الإنجليـزيـة ، وطبعت في لنـدن عـام ١٨٢٩ ، ونقلهـا (ديفريمري) و (سنكونيتي) إلى الفرنسيـة وطبعت في باريس في عامي ١٨٥٣ و ١٨٥٩ في خمسة مجلدات فيها فهرس أبجدي وترجم (دي سـلان) بعضها إلى الفـرنسية عن السـودان ، وترجم آخـر ما

يختص بأوساط آسيا وترجم ثالث ما يختص بآسيا الصغرى . وترجمها (مزيك) إلى الألمانية وطبعت عام ١٩١٢ ، ولها ترجمة تركية اسمها (تقديم وقائع) ولها مختصر كتبه محمد فتح الله بن محمود البيلرني موجود في جامعة كامبردج . وهناك مختصر لكتاب مجهول طبع على الحجر عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) . وطبعت في مصر في مطبعة وادي النيل عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) وفي المطبعة الخيرية عام ١٣٢٢ (١٩٠٤ م) وتوفي ابن بطوطة بمراكش عام ١٣٧٨ للميلاد في نحو الرابعة والسبعين رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم .

ثبت بمراجع الدراسة

- رحلة ابن بطوطة .
- مجلة العرب - لصاحبها الأستاذ / حمد الجاسر (أعداد متفرقة) .
- أدب الرحلة عند العرب / د . حسني محمود حسنين .
- محمود غنيم وشعره / د . محمد أحمد سلامة .
- سياحة في عالم الأدب والكتابة / د . محمد أحمد سلامة .
- مكانة الأدب العربي بين الآداب العالمية / محاضرة للأستاذ الدكتور / طه حسين في المؤتمر الثاني للأدباء العرب الذي انعقد ببلودان السورية عام ١٩٥٦ .
- الرحلات / د . شوقي ضيف .
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ، رحلة الأندلس ، القاهرة ١٩٦٣ - نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، نشرت في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مجلد ٣ (١) ، مدريد ١٩٥٥ .
- الإدريسي ، أبو عبد الله محمد : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تحقيق دوزي ودي خويه ، ليدن ١٨٦٦ .
- البكري ، أبو عبد الله عبد الله : جغرافية الأندلس وأوروبا ، قطعة

من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥٢ م .
- ابن المنقذ ، أسامة : كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي ، جامعة برينستون بالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٠ م .
- ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، الجزء الأول ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ابن جبير ، أبو الحسين محمد : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٨ م .
- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي : صورة الأرض ، بيروت (بدون تاريخ) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمٰن : المقدمة ، القاهرة (بدون تاريخ) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمٰن : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٥٩ .
- دائرة معارف الشعب / الجزء الثالث ، العدد (٤٩) .
- الموسوعة العربية الميسرة .
- الأعلام - للزركلي .

المحتـــويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

أعلام مؤرخي العرب والإسلام

يقول العلّامة ابن خلدون في مقدمته: «أما بعد؛ فإن فنّ التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتُشدّ إليه الركائب والرّحال، وتسمو إلى معرفته السُوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال؛ إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيه الأقوال، وتُضرب فيه الأمثال، وتُطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمّروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال؛ وفي باطنه نظرٌ وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعدّ في علومها وخليق».

ولا شك أن كلمة ابن خلدون هذه تعبّر أدق تعبير عن معنى علم التاريخ، وتعرّفه تعريفاً مفصّلاً يقترب من معظم التعريفات المعاصرة.

وإذا كان علم التاريخ هو هكذا كما عرّفه ابن خلدون، فلا شك أن عامّة الناس وخاصّتهم أكثر حاجةً إلى معرفته من معظم العلوم الأخرى. لذا وانطلاقاً من هذا المبدأ نضع بين يدي القارىء العربي الكريم هذه السلسلة عن أعلام الفكر التاريخي العربي والإسلامي آملين أن نحقق الهدف المنشود من إصدارها.

كما نشير إلى أننا - إضافة إلى هذه السلسلة - أصدرنا، وسنصدر تباعاً إن شاء الله مجموعات أخرى عن أعلام الفكر العربي والغربي في مختلف الميادين المعرفية. وما توفيقنا إلا بالله.